قراءات وخواطر في الفكر الإسلامي

كل الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التصوير وغير ذلك دون حصول علىٰ إذن خطي من المؤلف والناشر.

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747

المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

01007868983 - 0502357979

قراءات وخواطر
في
الفكر الإسلامي

تأليف

د. عبد المحمود أبّو

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الخواطر يبدو أنها وجدت قبولا، فقد نفدت كل النسخ من الطبعتين الأولى والثانية، ولا زال الإقبال عليها نسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأظن أنها من بركات صديقي الراحل الفرضي الإمام النور التلب الذي خصصت الاهداء لروحه أسأل الله أن يكرم نزله ويبارك في ذريته أبنائه وبنتيه، وفي زوجه التي حافظت على الوصال بيننا وأكرمتنا بزيارة أسرتي في بيتنا، أسأل الله أن يحفظها ويكرمها ببر أبنائها.

الكتاب يركز على منهج الوسطية، ويراهن على أن فلاح الأمة وصلاحها وشهودها يكون بالالتزام بالوسطية منهجا وسلوكا، فهو المنهج المستقيم الذي جاء به الإسلام وطبقه رسول الله ﷺ قولا وفعلا، وفي ظل هذا المناخ الذي طغت فيه الماديات وتراجعت فيه القيم فإن الوسطية هي البلسم الذي يعالج أدواء البشرية ويحقق لها التوازن ويعيدها إلى قيم الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

اللهم إني أسألك نفسا بك مطمئنة تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وتقنع بعطائك. اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

رمضان ١٤٤٤هـ - مارس ٢٠٢٣م

مقدمة الطبعة الثانية

هذا الكُتَيّب تجميع لخواطر وقراءات وأفكار جاءت دون ترتيب؛ وقد وردت في خطب جمعة، وفي مداخلات في منتديات، وبعض الأفكار كانت خواطر مرت بالذهن وأنا أطالع بعض الكتب؛ وقد صدرت الطبعة الأولى قبل سنوات بعنوان "قراءات وخواطر فكرية" نفدت كلها؛ وكنت وددت أن أراجع الأفكار لأُرتبها وأضيف إليها وأحذف، ولكني لم أجد الوقت، وقد ألَحَّ عليَّ صديقي الحبيب: عبدالرحمن مخاوي بضرورة طباعة الكتاب على حاله وذلك لكثرة الطلب عليه حسب رأيه؛ فاستجبت لرغبته؛ وأذنت له بالقيام بطباعته في نسخته الثانية، على أمل أن أجد الوقت لمراجعته وتنقيحه في الطبعة الثالثة إذا شاء الله. وقد يلاحظ الذين اطلعوا على النسخة الأولى أن هذه الطبعة قد اشتملت على بعض التعديلات والاضافات متعلقة بالعناوين والتقديم والتأخير، وغير ذلك؛مع الإبقاء على نفس العنوان؛ واستعرض الكتاب مناهج الفكر الإسلامي السائدة في الساحة مع التركيز على منهج الوسطية الذي يراه الكاتب هو المخرج من محنة الأمة الحالية. آمل أن يجد القارئ فيه مايفيد.

عبدالمحمود أبُّو

غرة محرم ١٤٣٩هـ

أم درمان

إهداء

أهدي هذا الكتاب لروح صديقي الراحل الفرضي الإمام النور التلب؛ ذلك الرجل الذي جمعتني به صداقة ومحبة في الله، وتواصل وجداني بالرغم من أننا لم نلتق وجها لوجه حتى غادر هذه الفانية!! أسأل الله أن يجمعنا في مستقر رحمته بصحبة المصطفى ﷺ والناجي منا يأخذ بيد أخيه يوم القيامة؛ ومن خلف فما مات، فقد أكرمه الله بذرية صالحة نحسبها كذلك إن شاء الله. بارك الله في أبنائه (محمد الصادق والتجاني والإمام وعبدالله. وبنتيه سارا وحفية. وزوجه أم الحسن عبدالله قرشي) قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ ﴾.

مدخل

كثير من المسلمين وغير المسلمين؛ يستغربون من تناقضات خطابات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية، والمتحمسين لها من العلماء والمفكرين وخطباء المساجد وغيرهم من النشطاء في هذا المجال، وهذا الاستغراب مرجعه التناقض بين المفاهيم والمواقف التي تصدر عن هؤلاء المعنيين مع أنها مدعومة بالنصوص والأدلة؛ بل أكثر من ذلك نجد أن هذا التناقض أدى إلى إضعاف الالتزام بالإسلام عند كثير من المسلمين؛ في العقيدة، والأحكام، وثبات المواقف؛ مما نتج عنه زعزعة واضطراباً في الحالة الإسلامية بصفة عامة. فصار الدعاة عاجزين عن الإقناع؛ لأنهم عندما يطرحون أي مبدأ أو فكرة؛ يواجهون بالنقيض الذي يطرحه داعية آخر ! ومن الناحية الأخرى؛ فإن كثيراً من غير المسلمين قلَّلُوا من احترامهم للمسلمين؛ بسبب هذا السلوك الذى يرونه عند المسلمين فاقتنعوا أنهم على حق! لأنهم ينظرون إلى المسلمين من خلال الممارسة والواقع؛ فيقولون لو كان دين هؤلاء صحيحا لما كانوا على هذه الحال ! والذين أنصفوا المسلمين فإن إنصافهم يأتي من اطلاعهم على الإسلام من مصادره الأصيلة، ومن تاريخه الناصع؛ فأقنعتهم الحقائق والوقائع بحقيقة هذا الدين؛ وقليل ماهم. إنّ التناقض في الخطاب الإسلامي بين العاملين في مجال الدعوة يرجع لعدة عوامل أهمها:

العامل الأول: غياب قيادة دينية مجمع عليها لتكون لها الكلمة الأخيرة في

حسم الخلاف، فلقد غابت هذه المرجعية بوفاة الرسول ﷺ، وقد يقول قائل إنّ المرجعية موجودة تتمثل في الكتاب والسنة، هذا صحيح من حيث مصدرية الأحكام، ولكننا مع ذلك نرى الخلاف قائما بالرغم من وجودهما؛ لأن منهج التعامل معهما يختلف من عصر إلى عصر، ومن شخص إلى آخر، فغياب المرجعية البشرية المجمع عليها عامل من عوامل التناقض المعاش(١).

العامل الثاني: المنهج التعليمى المتبع في معظم المؤسسات الدينية غيَّب حقيقة الدين الإسلامي عن كثير من المسلمين، حيث أهمل روح الإسلام بتركيزه على الفروع والشكليات: لقد اعتمد المنهج على التحفيظ والرواية، مهملا الأسلوب النبوى القائم على التربية وغرس المبادئ والمفاهيم بصورة تمكِّن المتلقي من التفاعل معها وتطبيقها، كما افتقر إلى وسائل غرس نهج التفكير، والمقارنة في أذهان المسلمين، ولذلك فإن الدين الخاتم لم يتم استيعابه كرسالة عالمية خالدة تخاطب كل بني البشر باختلاف ثقافاتهم وعاداتهم وعصورهم؛ بل انتهج كثير من الدعاة أسلوبا يقدم الإسلام كأنه ديانة قومية محلية متقوقعة في بادية العرب في عصرالجاهلية.

العامل الثالث: تحَكُّم النظم السياسية المستبدة على الساحة التاريخية الإسلامية الغالبة شلّ حركة الفكرالإسلامي، وغيّب تلاقح الأفكار والآراء؛ الذي يمثل أهم عوامل الإبداع والتطور لما يتيحه من تعدد الخيارات التي تمكن المتلقي من الاختيار بين البدائل، فالنظم المستبدة لا تعرف إلا رأيًا واحداً هو رأي الحاكم بأمره ! ومن خالفه فمصيره واحد من اثنين: إما السجن وإما القبر!.

(١) الشيعة عندهم مراجع دينية يلتزمون بتوجيهاتها بخلاف أتباع المذهب السني.

العامل الرابع: اختلاف البيئات والأزمنة والأمكنة له أثر كبير على الفكر، وبالتالي فإن الفهم للدين يختلف من شخص لآخر؛ لأنه ليس بالضرورة أن تكون وسائل الاستنباط وترتيب الأولويات محل اتفاق من الجميع في ظل وجود المؤثرات والخلفيات المتعارضة.

العامل الخامس: تعامل الآخرمع الإسلام والمسلمين خلق ردَّ فعل غاضب لدى المسلمين، فاختلفت أساليبهم في التعامل مع هذا الآخر؛ فمنهم من يرفض مبدأ التعامل مع الآخر إسقاطا للتاريخ على الواقع؛ ومنهم من يقر مبدأ التواصل استنادا على النصوص الشرعية وعلى التجربة التاريخية، فمنذ أن جاء الإسلام وجد صدوداً وكيداً من المشركين واليهود وبعض النصارى؛ واستمر هذا النهج حتى عصرنا الحاضر؛ مما جعل كثيراً من المسلمين يرفضون أي تسامح مع الآخر، ويدعون لإخضاعه بالقوة بل يسعون لاستئصاله بينما يتبع آخرون منهجـًا يتمسك بالأصل وهو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ويرى أن كل تصرف يعامل بما يناسبه فإذا انتفت الأسباب رجعنا للأصل.

هذه العوامل وغيرها أدت إلى بروز مدارس كثيرة داخل الملة الإسلامية يمكن ارجاعها إلى ثلاث مدارس؛ تتفرع عنها فرق، وطوائف، ومذاهب؛ تغطي الساحة الإسلامية بامتداداتها الأفقية والرأسية، تلك المدارس هي: **مدرسة الانكفاء على الذات؛ ومدرسة الانبهار بالوافد؛ ومدرسة الوسطية**.

فالمدرسة الأولى لديها أفكارمعلبة تسعى لإسقاطها على الواقع دون التفات إلى العلل والمتغيرات الزمانية والمكانية والظروف البيئية، أما **المدرسة الثانية** فهي نقيض المدرسة الأولى؛ تنتمي إلى الإسلام اسمـًا ولكنها في الواقع

مستلبة أمام الآخر ومنبهرة به؛ فتسعى إلى تقليده في كل شئ، وتدعو إلى التحرر من كل ما هو ماض في تاريخنا، بل ترى أنه لامخرج لنا من حالة التراجع الحالية إلابالقطيعة التاريخية والمعرفية عن تراثنا واتباع المنهج الغربي بحذافيره! **والمدرسة الثالثة؛** تتبع اسلوباً وسطاً يدعو للالتزام بالثوابت والاجتهاد لمواجهة المستجدات ومراعاة العلل في الأحكام المتعلقة بالمعاملات، ولا تتحرج من الإقتباس من الآخرين، ولكن وفق ضوابط ومعايير معينة تمنع الإنكفاء، وتعصم من الذوبان.

إنني في هذا الكتيب أحاول استعراض تلك المدارس وأسبابها ودوافعها؛ مع توضيح أن المنهج الأقدرعلى التعبير عن حقيقة الإسلام؛ هوالمنهج الذي يؤكد الفرضيات الآتية: **الفرضية الأولى**: أن الإسلام هو كلمة الله الأخيرة للبشرية وأنه مكمل للرسالات التي سبقته ومصدق لها ومهيمن عليها بتضمنه لأصولها. **الفرضية الثانية**: أن عالمية الإسلام تقتضي تواصله مع الإنسان حيثما وجد؛ وتعامله معه بالصورة التي تلبي حاجاته المتجددة. **والفرضية الثالثة**: أن خلودالاسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان؛ تتوقف على جهد واجتهاد حملته وقدرتهم على التعاطي مع المستجدات؛ بصورة تحفظ أصوله وتمكن البشرية من تحقيق مطالبها الفطرية المشروعة؛ دون حرج أو عنت. وقد اشتمل الكتيب على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة..

الفصل الأول

المدارس العاملة في الساحة الإسلامية

مدرسة الانكفاء

الإسلام دين الله الخاتم جاء بأحكام تعالج كل مشاكل الحياة المتعلقة بالإنسان والحياة والأحياء والكون؛ وتؤخذ أحكامه من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة،وفي حياة رسول الله ﷺ كان هو المرجع عند الاختلاف باعتباره الرسول المكلف بتبليغ الدعوة، وبعد وفاته واجهت المسلمين مستجدات كثيرة لم يجدوا لها حكما مفصلا في القرآن والسنة ولذلك اجتهدوا لاستنباط أحكام تعالج تلك المستجدات، وظل المجتهدون في كل عصر يبذلون جهدهم لاثبات صلاحية الإسلام وقدرته على التعامل مع مايستجد في حياة الناس؛ وفي العصور المتأخرة توقف الاجتهاد وظهر المقلدون الذين عجزوا عن الاقتداء بالسلف في منهجهجم الاجتهادي؛ فظهر منهج الإنكفاء وتمدد في الساحة الإسلامية. وهو منهج يقوم على المفاهيم الآتية:

- تقليد السلف في كل ما ذهبوا إليه من اجتهاد؛ بل تقديس آرائهم في بعض الأحيان.

- عدم التمييز بين الثابت والمتحرك من أحكام الإسلام.

- اعتبار منهج الأقدمين هو الخيار الوحيد للتعامل مع الآخر الملي والآخر الدولي.

- اعتبار نظام الخلافة هو النظام الإسلامي الشرعي الأوحد للحكم وما

علينا إلا إعادته.

- عدم إعطاء أي اعتبار للمستجدات في الساحة الإسلامية والعالمية.

- الفهم الهجومى للجهاد كوسيلة لنشر الإسلام.

هذا المنهج غذته العوامل الآتية:

أولاً: الجمود الفكري

منذ القرن السابع الهجري أغلق باب الإجتهاد إجتهاداً من بعض العلماء؛ حماية للعقيدة ومنعًا للفوضى وضبطًا للأحكام؛ واشترط الفقهاء وقتها أن معرفة الدين الحق تتمثل في تقليد السابقين وتطبيق ما استنبطوه من أحكام؛ ولكن مع طول الزمن تحول التقليد إلى جمود فكري؛ صار عاجزا عن مواجهة المستجدات مما فتح الباب للأفكار الوافدة والنظريات الأجنبية؛ فغزت بلاد المسلمين ووجدت من يناصرها من أبناء المسلمين بسبب عدم قدرة الفقهاء التقليديين على الإجابة عن تساؤلاتهم. يقول الإمام القرافي: "الجمود على المنقولات أبداً ضلال في الدين، وجهل بمقاصد علماء المسلمين، والسلف الماضين"(١) وظهرت نتيجة للجمود مدرستان إحداهما تدعوا إلى الإنكفاء على الماضي وترفض كل جديد، والأخرى تدعوا إلى الحداثة والتبعية للأفكار الوافدة دون نقد. واحتدم الجدل العقيم حول مفاهيم قديمة متجددة؛ هل الإنسان مسير أم مخير ؟ وهل للعقل دور في فهم النصوص أم لا ؟ وتحول الجدل إلى سفسطة ابتعدت عن الجوهر وعما ينفع الناس.

---

(١) الفروق للامام القرافي (٢/ ٢٢٩)

ثانياً: الخلط الفقهي

الإسلام دين يقوم على العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات؛ فالعقيدة والعبادة وأصول الأخلاق؛ أحكامها ثابتة لا تتغير بتغير المكان ولا تتبدل بتبدل الزمان؛ وأما المعاملات فهي تتجدد وتتغير حسب تجدد الأحوال وتغير الزمان وتحرك العلل؛ ولذلك جاءت أحكامها مرنة لتتماشى مع تطور المجتمع. كذلك الأمور القائمة على الخبرة والتجربة فإن الإسلام يراعي فيها المصلحة؛ والرسول ﷺ يقول: (أنتم أعلم بأمر دنياكم)(١) غير أن كثيرا من الدعاة وخاصة المتأخرين منهم؛ تعاملوا مع هذه الأحكام بفهم واحد دون تمييز؛ فشاع الخلط ووقع الحرج. إن التعامل مع المتغيرات بمنهج الثوابت هو الذي أدى إلى التخبط وعدم المواكبة؛ ففتح الباب لنقد الإسلام واتهامه بعدم صلاحية التطبيق. جاء هذا الإتهام من أعداء الإسلام نتيجة لممارسات المسلمين.

ثالثاً: محاولة مجاراة اليهود والنصارى

اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار! وأنهم أبناء الله وأحباؤه؛ بغض النظر عن التزامهم بمنهج الله أو عدم التزامهم. وحاول بعض المسلمين أن يتفوقوا على اليهود؛ فقالوا بأفضلية الأمة الإسلامية بغض النظر عن الالتزام من عدمه! في حين أن القرآن الكريم قد وضع شروطا لهذه الأفضلية أوضحته هذه الآية: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ماقاله شرعا دون ماذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي رقم الحديث (٢٣٦٣)

وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ولكن بعض المسلمين مجاراة لليهود لم يراعوا هذه الشروط؛ فحكموا بأفضلية الأمة دون التزام بشروط الأفضلية. وحاول بعض كتاب السيرة - مجاراة للنصارى - خلق أحداث من العدم؛ ليثبتوا بها تفوق رسول الله ﷺ على عيسى بن مريم عليه السلام؛ فإذا كان عيسى قد أحيا الموتى معجزة له؛ فلا بد أن يكون رسول الله قد تفوق عليه بإحياء الموتى!. وهكذا إبراء الأكمه والأبرص؛ وفات عليهم أن معجزة المصطفى ﷺ لم تكن مادية؛ وإنما هي معجزة من نوع آخر تمثلت في القرآن الكريم نصا ومنهجا وتصديقا؛ وهذا المنهج ثابت؛ والتحدي به قائم إلى يوم القيامة، فإذا طُلِبَ من أي مسلم أن يأتي بمعجزة رسول الله ﷺ لأتى بالقرآن. ولكن التنافس، والمجاراة، ومحاولة إثبات التفوُّق؛ صرفت المسلمين عن الاعجاز القائم؛ إلى انتحال معجزات مشكوك في صحتها! مع أن القرآن الكريم بيَّن أن الله امتنع عن إرسال المعجزات المادية لعلة؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الاسراء: ٥٩] فعندما يحصرالمرء تفكيره في مرحلة تاريخية معينة ويرفض التعامل مع المستجدات بإيجابية، ويحاول معالجة مشاكل الحاضر برؤية ماضوية، سيجد نفسه معزولاً عن الواقع؛ عندها سيكون منكفئا على ذاته.

إن منهج الإنكفاء لايصلح للمحافظة على التدين الصحيح؛ وبالتالي فهو عاجز عن تقديم الاسلام بالصورة التي تقنع الآخرين للدخول فيه. لأنه يقوم على الجمود، ويناقض العقل، ويصادم الواقع، ويُدْخل المسلمين في حرج بإلزامهم بمفاهيم ومواقف تتناقض مع مقاصد الإسلام وتخالف منهج النبي

ﷺ الذي جاء ليضع عن الإنسانية الإصر والأغلال التي كانت عليها.

○ مدرسة الاستلاب:

لقد انبهر عدد من المفكرين والمثقفين المسلمين بالحضارة الغربية بصورة أعمتهم عن النظر إلى سلبياتها؛ ولم يميزوا بين الحقائق الموضوعية وبين المفاهيم الخاصة بتلك المجتمعات؛ بل اعتبر بعضهم أن الخير كل الخير هو اتباع الغرب في كل صغيرة وكبيرة! والشر كل الشر في مخالفته؛ ويرى بعضهم أن التخلف الذي تعيشه مجتمعاتنا الإسلامية سببه الإسلام ! فإذا أردنا أن نلحق بركب التقدم؛ ما علينا إلا أن نترك الإسلام جانبًا، ويحتجون بأن أوروبا لم تتقدم إلا عندما تحررت من الدين ومن سلطان الكنيسة. هذا الشعور هيمن على كثير من المثقفين طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين، وخلق جفوة بين التَّدين والحضارة. هنالك عدة عوامل ساهمت في خلق هذا الشعور المنبهر:

العامل الأول: هو ما وصلت إليه الحضارة الغربية من تقدم في مجال العلوم والتكنولوجيا، وبناء الدولة الحديثة التي تقوم على المؤسسات، وسيادة القانون، والتداول السلمي للسلطة، واحترام حقوق الإنسان، وعند المقارنة يظهر تفوُّق النظام السياسي في الغرب على النظم السياسية في البلدان الإسلامية.

العامل الثاني: هو تخلُّف الخطاب الديني في المجتمعات الإسلامية عن مواكبة تطورات العصر؛ بل وفي بعض الأحيان يعتبرها من مظاهر الكفر! ويروى أنه عندما ظهرت المطبعة لأول مرة في العالم الإسلامي؛ استشير بعض العلماء في تركيا؛ هل يجوز أن يطبع المصحف على الآلة ؟ فاجتمع مجلس العلماء وقرر أنه لا يجوز أن يطبع المصحف في المطابع؛ لأن ماكينة الطباعة سوف

تضغط على الكلمات عندما تريد طباعتها وكلام الله يعلو ولا يعلى عليه !! هذا النوع من الفهم كان سبباً في خلق تناقض بين الدين والتقدم. وكثير من الشباب الذين تلقوا تعليمهم في المؤسسات التعليمية الحديثة واجهوا أسئلة متعلقة بالعلوم، والمدنية، ومقومات الحضارة؛ فلم يجدوا أجوبة مقنعة مما دفعهم إلى تبني النحل الوضعية ليعيشوا عصرهم.

العامل الثالث: هو الإستبداد السياسي الذي قتل روح الإبداع والمقاومة في الإنسان؛ وبالتالي أدى إلى جمود في الفكر وتعطيل وظيفة العقل كما بينا سابقا.

العامل الرابع: الإستشراق: لقد تناول كثير من المستشرقين الإسلام بصورة مشوهة غيَّبت الحقائق وخلطت بين مبادئ الدين وممارسات البشر؛ وفي المقابل مجدت الحضارة الغربية وأظهرتها في صورة الفردوس الموعود.

هذه العوامل وغيرها كانت سبباً في تهيئة الأمة لما أسماه المفكر الجزائري مالك بن نبي: "القابلية للإستعمار ".

لقد سيطرت على العالم الإسلامي - في الغالب - تيارات استمدت مفاهيمها من النهجين المذكورين، وهي تيارات من الصعب أن تلتقي على قواسم مشتركة؛ لأنها تتبع مناهج لا توجد فيها مساحة للآخر، ولديها أحكام مسبقة ضد مخالفيها، فنهج الانكفاء يعتقد أن كل ما يحتاجه المسلم موجود في ما تركه السلف من اجتهاد، وأن أي اقتباس من الآخرين هو ضلال مبين. ونهج الإستلاب يحكم على الإسلام من خلال واقع المسلمين المأزوم؛ ويسقط ممارسات رجال الدين في الغرب على دعاة الإسلام وعلمائه؛ فكما أن الغرب لم يتقدم إلا بعد تحرره من سلطان الكنيسة؛ فعلينا أن نبعد الدين من الحياة

العامة – وخاصة السياسة – حتى نتمكن من اللحاق بالعصر الحديث! لقد ضاعت حقيقة الإسلام "الوسطية" بين هذين التيارين اللذين علت أصواتهما واختطفا شعار الدفاع عن هوية الأمة ونهضتها! وأدخلا معظم المسلمين في حيرة أدت إلى زعزعة الثقة في الشعارات وأضعفت العقيدة وشوهت الإنتماء.

لا شك أنّ النهجين يشتملان على بعض الحقائق التي ينبغي استصحابها، وبهما كثير من التشوهات والانحرافات يجب التخلص منها، وهذا ما يحققه منهج الوسطية الذي يقدم الإسلام بديلاً حضاريـًا ونظامـًا اجتماعيـًا أعدل؛ يخاطب ويلبي كل المطالب الفطرية للبشرية. تصديقـًا لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ابراهيم: ٢٤ – ٢٥]

○ مدرسة الوسطية

الوسطية تعني السماحة والإعتدال في التكليف، وترك المغالاة في الدِّين والتكلف فيه، إنّ الوسطية منهج يُمَكِّن المسلم من فهم الأمور فهمـًا صحيحـًا، ومن ثم يتعامل معها بوعي، ففي مجال العقيدة يُحقق وَحْدانية الخالق، وفي مجال العبادة يُراعي مَقاصدها الاجتماعية، ويدرك أنّ أساس الأخلاق هو أنْ تُعامل الناس كما تُحب أن يُعاملوك، ومنهج الوسطية يجعل المرء ينظر إلى الأمور بتوازُن ووعْي وتكامل.

إنّ معالم الوسطية تتمثل في الآتي:

أولا: الجمع بين الأصالة والمعاصرة؛ فالوسطية تلتزم بالأصالة كمرجعية،

ولا تهمل المعاصرة كفضاء للتطبيق، وتفاعل بين النص والواقع.

ثانيا: التوفيق بين علم الشريعة المُتَمَثِّل في الأحكام الشرعية الخمسة، والمبادئ والمقاصد؛ وبين علم التَّزْكية الذي يخاطب الوجدان ليرتقي بالإنسان إلى مرحلة التذوق الإيماني..

ثالثا: التمييز بين الثوابت والمتغيرات؛ فالأحكام الشرعية تنقسم إلى أصول؛ أحكامها ثابتة؛ تتمثل في العقائد والعبادات وأصول الأخلاق، وفروع ووسائل، أحكامها مُعَلَّلة وتَتَغيَّر بتغيُّر العلل.

رابعا: التوفيق بين ظواهر النصوص وقراءة ما وراء النصوص، من معاني تستنبط بالتأمل والتدبر والتفكر.

خامسا: الالتزام بالتيسير في الفتوى، والتبشير في الدعوة؛ فالأخذ بالرُّخص، ومراعاة الضرورات، مع معرفة المكونات الفكرية، والخلفيات الثقافية، للمخاطب، واختيار المداخل المناسبة تطبيقا لمبدأ الحكمة المطلوب في الدعوة؛ قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]

سادسا: مراعاة الواقع: التعاليم الإسلامية لا تُطبَّق في فراغ وإنما يقوم بتطبيقها الإنسان بكل خصائصه، وفي واقع تختلف طبيعته من بيئة لأخرى، لذلك فإن منهج الوسطية يراعي الواقع ويزاوج بينه وبين الواجب واستصحاب

الواقع، على أساس قوله ﷺ للسيدة عائشة رضي الله عنها: " لولا أنّ قومك حديثوا عهد بكفرٍ لأسَّسْتُ البيت على قواعد ابراهيم "[1] مراعاة للواقع.

سابعا: مراعاة الضرورات: الإنسان مخلوق من طين وفيه قَبَسٌ من روح الله، ومن خصائصه العقل والحرية والإرادة والوجدان؛ وهذه لديها مطالب ضرورية لتحقيق إنسانية الإنسان، وتمكينه من تحقيق وظيفة الإستخلاف التي خلق للقيام بها. قال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤ ﴾ [قريش: ٣-٤] فالحاجات الضرورية اهتم بها الإسلام وشرَع لتلبيتها وصيانتها، وليس هنالك أمر ضروري للإنسان؛حرَّمه الإسلام، وإنما وضع ضوابط شرعية لإشباعه مع مراعاة التوازن بين حاجة الفرد والمحافظة على النظام العام للمجتمع البشري.

ثامنا: الالتزام بالشورى وكفالة الحرية: فالحرية من أهم خصائص الإنسان،ولذلك حرَّم الإسلام الإكراه في الدين، والحرية شرط لممارسة الشورى التي تضبط النظام الإجتماعي؛ وعليه فإن الوسطية تُولي اهتماما كبيرا لصيانة الحرية تحقيقا لكرامة الإنسان وتمكينا له من ممارسة الشورى.

تاسعا: انصاف المرأة وإشراكها في كل الأعمال التي تلائم طبيعتها فهي تمثل الشِّق الآخر للإنسان، وهي مخاطبة كالرجل لتحقيق وظيفة الاستخلاف بكل تجلياتها؛ تقسيما للأدوار وإقامة لرسالة الإنسان في الكون.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري في الصحيح(٣/ ٤٣٩) كتاب الحج . (٤٢) باب فضل مكة وبنيانها ومسلم في الصحيح(٢/ ٩٦٨- ٩٦٩) كتاب الحج (٦٩) باب نقض الكعبة وبنائها

عاشرا: التَّسامح مع الآخر، والعمل على صيانة العيش المشترك بين مكونات المجتمع المتنوعة؛ دينيا وثقافيا، فالتعدد إرادة إلهية، وضرورة اجتماعية، وواقع كوني مُعاش.

الفصل الثاني

عوامل الخلل ومنهج العلاج

عوامل الخلل التي أدت إلى غياب الفهم الصحيح للاسلام كثيرة أهما عاملان أديا إلى تغييب الحقيقة الإسلامية عن أذهان كثير من المسلمين ومفاهيمهم وأثَّرا على الفكر والممارسة، وجعلا مجتمعات المسلمين ضحية للغلو والانحراف، هذان العاملان هما:

العامل الأول: الاستبداد السياسى:

من الأسباب التي أدت إلى تراجع الأمة؛ وقوعها تحت طغيان الإستبداد السياسي ردحـًا من الزمن، فقد عاش المسلمون حوالي ثلاثة عقود فقط في ظل الخلافة الراشدة، ثم حلت عليهم نقمة الحكم القائم على التغلب والقهر؛ فضاعت الشورى، وقمعت الحريات، وانتهكت كرامة الإنسان، وتوارى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الحاكم بأمره لا يقبل إلا ما يتفق مع هواه، واستسلم كثير من الفقهاء لمنطق الأمر الواقع؛ خوفـًا من الفتنة، ومعلوم أن من شروط النهضة توفر الحرية، وأنّ التصدي للعدوان الخارجي؛ يتوقف نجاحه على مقاومة القهر الداخلي. لقد شدّد الإسلام على المحافظة على كرامة الإنسان وجعلها من أولويات مهام الدعوة الإسلامية، فقد جاء الإسلام لتوحيد الله ونفي عقيدة الشرك، وتحرير الإنسان من أسر العبودية والاسترقاق، وبيّن الرسول ﷺ أنّ حرمة الإنسان مقدمة على حرمة الكعبة المشرفة؛ لذلك حرص الإسلام على توفير مناخ الحرية والأمان وصيانة كرامة الإنسان؛ لأن المناخ السليم من شأنه أن يؤدي إلى الإبداع في العطاء، والإعتدال في المواقف، والوسطية في الأفكار، وكان العهد النبوي مجسداً لهذه المعاني في أقوى صورها،

وكذلك عهد الخلفاء الراشدين.

إن الحكم في الإسلام يقوم على الإختيار والشورى؛ ولكن الممارسة العملية في الغالب قامت على التغلب والقهر، فأسقطت الشورى، وأهملت دور الأمة في الشأن العام، حيث قامت في مجتمعات المسلمين نظم حكم فاسدة؛ أعطت شرعية لكل متغلب، بحجة منع الفتنة! فيزعم هذا المتغلب بعد أن تستقر له الأمور؛ أنه يحكم بأمر الله، ويتصرف في المال العام دون رقيب ولا حسيب، وبعض هؤلاء الخلفاء كان فاسد العقيدة؛ لايتورع من التجرؤ على الله! فقد روي عن الوليد بن اليزيد أنه استفتح ذات يوم فأوّل ما قابله من القرآن قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [ابراهيم: ١٥] فمزَّق المصحف وقذف به على الأرض وقال:

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد[١]

إن الإستبداد الذي خيَّم على المجتمع الإسلامي؛ حرم المسلمين من إقامة نظام سياسي يجسد المبادئ والقيم الاسلامية، ويقبل التطور؛ ليتمكن من منافسة الآخرين، كما أن الاستبداد قتل في الأمة روح الإبداع. وتحول المستبدون إلى طغاة يؤلهون أنفسهم، وفعلوا بالناس ما لم يفعله الفراعنة الطواغيت! قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: " لو جاءت كل أمة بفرعونها وأتيناهم بالحجاج لغلبناهم "[٢] وعبد الملك بن مروان مع عظمته

(١) تفسير القرطبي ، والوفيات لابن شاكر الكتبي، والمستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي
(٢)السيرة الحلبية لنورالدين الحلبى ص (١٦٨)

وحنكته؛ إلا أنه فى مجال فرض سلطانه لايتورع من مخالفة الضوابط الشرعية للحكم فى الإسلام، فقد روى السيوطي أن عبد الملك صعد المنبر وقال: " والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي إلا ضربت عنقه "(١). أما المال فقد تعامل معه المستبدون على أنه مالهم الخاص؛ وأنما يفعلونه من تبديد هو بأمر الله ، وأن الأمة لا تملك إلا الطاعة. قال أبو جعفر المنصور: " إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه؛ أعمل بمشيئه وأقسمه بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلاً إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وأرزاقكم فتحني، وإذا شاء أن يقفلني قفلني "(٢). هذا الكلام مقبول فى مجال العقيدة ولكنه فى سياسة الحكم يعنى عدم الخضوع للرقابة والمحاسبة، لقد سادت هذه المفاهيم في مجتمعات المسلمين ردحًا من الزمان فأقعدت بالأمة وعطلت من تطور النظام السياسي.

إن الاستبداد سبب جوهرى من أسباب تراجع الأمة للآتي:

أولاً: لأنه يؤدى إلى غياب الشورى. فالنظام المستبد يقوم على القوة الغاشمة، ويستمد شرعيته من التغلب بالقهر؛ فمن الطبيعي أن يهدر الشورى التي هي إحدى فرائض الإسلام السياسية، يسقطها أولاً في مرحلة الوصول إلى السلطة، ويغيِّبُها ثانيًا من الممارسة السياسية وفي إدارة الحكم، وتغييب الشورى أدى إلى حرمان المسلمين من أفكار كثيرة كانت أكثر استنارة من الأفكار الظلامية التي اقترنت بعهد الاستبداد! لأن المستبد لا يقبل الرأي الذي

(١) تاريخ الخلفاء

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص (١٠٨)

يخالف هواه، ويقرب علماء السوء الذين يعطونه شرعية ويبررون تصرفاته، مما دفع المجتمع إلى حسم خلافاته بالعنف وسيادة منطق الغلبة بالقوة، لأن الرأي الآخر غير مسموح به، ونهج العنف هو الذي ساد واحتل أكبر مساحة في تاريخ المسلمين، مما عطل الفكر الإسلامي عن التطور وبالتالي أصبح عاجزاً عن تقديم نظرية سياسية لإدارة الدولة مكتملة الأركان تنال إجماع الأمة، وتبرز الرؤية الإسلامية للنظام السياسي تنافس الأطروحات السائدة. إن الإستبداد بالرأي نهج فرعوني ممقوت قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩]

ثانيـًا: التطور لا يكون إلا في ظل كفالة الحريات، فمناخ الحرية يسمح بتعدد الخيارات التي تتيح للمجتمع الحكم عليها بعد المقارنة فيختار أفضلها؛ مما يفرض على المتنافسين أن يجتهدوا ليقدموا أفضل ما عندهم، غيرَ أن الإستبداد حرَم الأمة من هذه الميزة، فظلت لقرون وقرون ترى تكراراً لمنتج واحد، فتبلدت مشاعرها، وتردت أخلاقها، ومات أملها، فالإستبداد أسوأ عدو للإنسان؛ لأنه يفسد الأمزجة ويشوه الطبائع،ويشل التفكير؛ يقول الكواكبي: (وقد يبلغ فعل الإستبداد بالأمة أن يُحوِّل ميلها الطبيعي من طلب الترقِّي إلى طلب التَّسَفُّل! بحيث لو دُفِعَت إلى الرّفعة لأبَتْ وتألمت كما يتألم الأجهر من النور، وإذا أُلزمت بالحرية تشقى! وربما تفنى كالبهائم الأهلية إذا أطلق سراحها. وعندئذ يصير الإستبداد كالعلق[1] يطيب له المقام على امتصاص دم

(١) دود أسود يمتص الدم. يكون في الماء الآسن إذا شربته الدابة علق بحلقها . مفرده :علقة بفتح العين واللام

الأمة، فلا ينفك عنها حتى تموت ويموت هو بموتها)[١]. وهذا ملاحظ فى كثير من الأنظمة المستبدة؛ فبعد أن تذيق شعوبها الأمرين تنهار وتنهار معها الدول التى تحكمها! فتتحول إلى قبليات متصارعة وقوميات متقاتلة.

ثالثًا: غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إن النصر على الأعداء لا يحققه إلا من انتصر على عدوه الداخلي، فروح المقاومة تُغْرس في الإنسان من خلال التربية، وقد جعل الإسلام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة للتصدي للباطل داخليًا؛ وبالتالي تكون الأمة مستعدة لمواجهة أي عدوان خارجي، ولكن عندما تُحرم الأمة من التصدي للظلم داخليًا فإنها ستكون عاجزة عن مواجهة العدوان الخارجي؛ فقد قتل الإستبداد في الأمة روح المقاومة وأفسد مزاجها، وانفرط عقدها وهزمت في كل المعارك التي خاضتها مع العدو الذي احتل ثالث مقدساتها، وأغرب شيء أن العدو المعني تحيط به الدول العربية الإسلامية إحاطة السوار بالمعصم؛ ولو توزع المسلمون الذين يجاورون العدو كل ألف شخص ضدشخص واحد من أفراد العدو؛ عسكريين ومدنيين لخرج بعضهم دون نصيب!، ومع كل هذا التفوق البشري لصالح الأمة؛ إلا أنها هُزمت في كل المعارك التي خاضتها مع العدو باستثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣! وحرب المقاومة اللبنانية فى تموز- يوليو٢٠٠٦م.إنه الهوان الذي تنبأ به رسول الله ﷺ. عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: (يوشك أن تداعى عليكم الأمم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: أمن قلَّة نحن يومئذ ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنّكم غثاء كغثاء السّيل، ولينزعنّ الله من

(١) الأعمال الكاملة للكواكبى ، ص (٥٠٦)

صدور عدوّكم المهابة منكم، وليقذفنّ في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن ؟ قال: حبّ الدنيا وكراهية الموت)[١]

رابعًا: الانحراف عن وسطية الإسلام: إن مناخ الكبت والقهر والخوف والإرهاب، من شأنه أن يصنع الإحباط، والتطرف، والخوف من المستقبل،ويقتل الأمل؛ فالضغط النفسي الناشئ عن تلك الأسباب يمكن أن ينفجر في شكل ممارسات عنيفة موجهة ضد الأبرياء والضعفاء كما هو مشاهد في عالم اليوم، قال الكواكبي: (ومن غريب الأحوال أن الأُسَراء [المقهورين] يبغضون المستبد، ولا يقوون على استعمالهم معه البأس الطبيعي الموجود في الإنسان إذا غضب، فيصرفون بأسهم في وجهة أخرى ظلمًا: فيعادون من بينهم فئة مستضعفة، أو الغرباء، أو يظلمون نساءهم ونحو ذلك. ومثلهم في ذلك مثل الكلاب الأهلية، إذا أريد منها الحراسة والشراسة، فأصحابها يربطونها نهاراً ويطلقونها ليلاً؛ فتصير شرسة عقورة، وبهذا التعليل تعلل جسارة الأسراء أحيانًا في محارباتهم، لا أنها جسارة عن شجاعة. وأحيانًا تكون جسارة الأسراء عن التناهي في الجبانة أمام المستبد، الذي يسوقهم إلى الموت فيطيعونه انذعاراً كما تطيع الغنمة الذئب فتهرول بين يديه إلى حيث يأكلها)[٢] وهذا يفسر لنا مظاهر العنف الكثيرة التي ما تركت بلدا اسلاميا إلا وطالته، وهذا ينافي ما جاء به الإسلام من اعتدال ووسطية. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن الدين

(١) تاريخ الإسلام للذهبى ، ص (١١٥) موقع الوراق :www.alwaraq.com

(٢) الأعمال الكاملة للكواكبى : ص (٥٠٣) سلسلة التراث القومى : مركزدراسات الوحدة العربية

يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه؛ فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة)[١] فكما أن الاستبداد يشجع على العنف؛ فهو كذلك يشجع من ناحية أخرى؛ على الغلو في الأعمال، وهو ما نهى عنه الرسول الأمين. عن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها [أي قالوا هذه العبادة بالنسبة لنا قليلة] فقالوا أين نحن من النبي ﷺ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإني أصلى الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: (أأنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له؛ لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[٢].

العامل الثاني: الصراع العدمي بين نهجي الإنكفاء والاستلاب:

التطرف هو الوقوف عند طرفي الشئ، والفضيلة تتوسط رذيلتين، فالجبن قبيح، والتهور سيء والشجاعة وسط بينهما، والبخل ممقوت، والإسراف مذموم، والكرم يتوسطهما، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ ﴾ [الفرقان: ٦٧] وفي المجتمع الاسلامى هنالك تطرفان ضيعا الحقيقة هما: التطرف المنكفئ، والتطرف المستلب؛ لأن كلا

(١) رواه البخارى (٣٩) صحيح البخارى ، ص : (٢١) مكتبة الإيمان

(٢) متفق عليه : رواه البخارى (١١٥١) المصدر السابق ، ص : (١٠٧٩)ومسلم (١٤٠١) صحيح مسلم ، ص : (٦٦٤) مكتبة الإيمان القاهرة

منهما يقف عند نقطة لا تمكنه من رؤية الأشياء على حقيقتها، وكل واحد منهما يغذي الآخر! فمنهج الإنكفاء يسقط المستجدات من حساباته، ويعلب الأفكار والمفاهيم في مرحلة ماضوية، ويصر على معالجة مشاكل الحاضر بأساليب تجاوزها الزمن ! ومنهج الإستلاب منبهر بالحداثة إلى درجة تؤدي إلى كراهية الذات! ويرفض أي علاقة مع تراث الأمة، وعليه فإن بين النهجين حربـًا باردة لا يطفئها إلا طريق ثالث يجسر العلاقة بين الماضي والحاضر وفق معايير منضبطة وموضوعية. وهذا الطريق الثالث هو منهج الوسطية.

منهج الوسطية والدين في حياة الإنسان

يمكن أن نقرأ منهج الوسطية من خلال رؤيته للدين في حياة الإنسان؛ ومكانة الإنسان في الإسلام، ومنهجه للتعامل مع المستجدات.

أهمية الدين في حياة الإنسان:

الإعتقاد الديني يلازم الإنسان حيثما وجد، فهو قدر الإنسان، ومطلب من مطالبه الفطرية، فتكوين الإنسان المركب من المادة والروح؛ يجعل النزعات متعارضة، والرغبات متنوعة، مما يخلق جدلاً داخل الإنسان لا يهدأ إلا بعد أن يجد تفسيراً مقبولاً لهذا التناقض، فالإنسان بحكم تكوينه معرض لنزعات نفسية متعددة ومتعارضة (الحزن والفرح، الغضب والرضا، الحب والكره، اليأس والأمل...الخ) هذه الثنائيات تقلق مضجعه، وترهق ذهنه، فالإعتقاد الديني هو الوحيد القادرعلى تفسير مقنع يطمئن إليه الإنسان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الانعام: ٨٢] والإنسان لا يمكن أن يعيش إلا في وسط مجتمع يتبادل معه المصالح، ومن الطبيعي أن تتعارض هذه المصالح. فالدين هو القادر على تنظيم هذه العلاقات وحمل الإنسان على عدم التعدي على حقوق الآخرين؛ لأن الدين إذا استقر في نفس الإنسان سوف ينمي فيه عنصرالرقابة الذاتية، وهي إن صدقت فأثرها أكبر من الرقابة القانونية، والأجهزة الرقابية؛ قال ﷺ عن الاحسان: (أن

تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[١]. والإنسان دائماً يتطلع إلى المعرفة حيث يسعى لإدراك كنه الموجودات التي تعيش معه، ويتساءل عن هذا الكون: بدايته، ووظيفته، ومآله، وعلاقته به، هذه التساؤلات وتلك التطلعات لا يجيب عليها إلا شيء يطمئن إليه الإنسان ويصدقه، والدين هو من يقوم بهذا الدور "العقائد الدينية أعطت الإنسانية الطمأنينة النفسية، والرقابة الذاتية (الضمير) والتحصين الأخلاقي، والهوية الجماعية " [٢] وعليه فإن الإنسان حيثما وجد ارتبط بعقيدة دينية؛ إما عن طريق خطاب الله له وإما عن طريق سعيه نحو المثال المطلق، والدين نشأ عن هذين الطريقين، فخطاب الله للانسان ثمرته الأديان السماوية التي ختمت برسالة الإسلام التي جاء بها النبي محمد ﷺ، وسعي الإنسان نحو المثل الأعلى؛ ثمرته النحل الوضعية، وكل العقائد التي يدين بها الإنسان ويقدسها. يتضح مما سبق أن الدين له أهمية كبيرة في حياة الإنسان بل هو ضرورة نفسية وضرورة اجتماعية وضرورة كونية؛ ولايوجد مجتمع إنساني يخلو من العقيدة الدينية، وحتى أولئك الذين أنكروا الدين مالبثوا أن حولوا إنكارهم لعقيدة دينية! قال الشاعر الباكستاني الفيلسوف محمد إقبال:

إذا الإيمـــان ضـــاع فـــلا حيـــاة ولا دنيـــا لمـــن لـــم يحيـــي دينَـــا
ومَـــن رَضِـــيَ الحيـــاة بغيـــر دِيـــن فقـــد جعـــل الفنـــاء لهـــا قرينَـــا
تُســـانِدُها الكواكـــب فاســـتقرَّتْ ولـــولا الجاذبيَّـــة مـــا بَقِينَـــا

(١) رواه مسلم في صحيحه (٨)

(٢) الإمام الصادق المهدى : نحو ثورة ثقافية ص (٢٣) مكتبة الشرق الدولية – القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٦م

وفي التوحيـــد للْهِمَـــم اتحـــادٌ ولـــن نصـــل العـــلا متفرِّقينَـــا

وأكد القرآن الكريم هذا المعنى قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤ ﴾ [الجاثية: ٢٤]

مكانة الإنسان في الإسلام:

الإنسان في الإسلام مخلوق مكرم لمجرد إنسانيته؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠ ﴾ [الاسراء: ٧٠] والناس في الإسلام متساوون لا تفاضل بينهم بسبب اللون، أو النوع، أو العرق، أو الطبقة؛ وبالتالي فهم متساوون في الحقوق والواجبات في الدنيا؛ وأما التفاضل بالأعمال والعقيدة فهو في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [الحجرات: ١٣] والتشريعات الإسلامية جاءت لمصلحة الإنسان، ملبية لحاجاته؛ والتكريم الإسلامي للإنسان يظهر في الحقائق الآتية:

أولاً: قصة الخلق؛ إن خلق الانسان تميز بالخصوصية والإصطفاء؛ حيث سواه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له؛ تكريما له، وإعلاء لقدره، قال تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ ﴾ [ص: ٧٠ – ٧٣].

ثانيـًا: قضية التكليف؛ الإنسان خلق مختلفا عن المخلوقات الأخرى؛ مشاركا لها في بعض صفاتها ومتميزاً عليها بالعقل، والحرية، والإرادة، والبيان؛

هذه الخصائص أهّلته للقيام بأمر الاستخلاف في الأرض دون بقية المخلوقات؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ٣٠ – ٣٣].

ثالثًا: تسخير الكون لخدمته؛ النظرة العميقة تبين أن الكون كله مسخر لخدمة الإنسان؛ فالأرض ذُلِّلَتْ ليمشي الإنسان في مناكبها ويأكل من رزق الله، والسموات جُعلت سقفًا محفوظًا، والشمس ترسل أشعتها لتضيء الأرض، وتنمي النبات، وتقتل الجراثيم، وليعلم الإنسان عدد السنين والحساب، وجعل الله القمر نوراً؛ يبدّد ظلمات الليل، والنجوم خُلقت ليهتدي بها الإنسان في أسفاره، قال الإمام المهدي: " اللهم إنا نسألك بسر وحدانيتك، وبسر قدرتك على كل شيء وبسر ذاتك القائمة بكل شيء، أن تقذف في قلوبنا معرفتك وكمال حبك ياذا الجلال والإكرام، وأن تشوقنا إليك إذ أنت الذي أنعمت علينا بإخراجنا من العدم، فخلقتنا في أحسن تقويم، وخصصتنا بما لا نقدر على عده من التكريم، وأريتنا في أنفسنا ما لا يقدر عليه غيرك، مما يدل على انفرادك، والشوق اليك، وجعلت لنا من بين أيدينا ومن خلفنا ومن فوقنا ومن تحتنا نعمًا لا يحيط بها فكرنا، ودللتنا إلى حب ذاتك التي احتوت على جميع الخيرات، وعرّفتنا بآياتك ما خفي من الأنوار، فكانت ظاهرة لأولي الألباب والأخيار، ولا تخفى عظمتك باستيلائك على كل شيء مع الرحمة الظاهرة الكاملة؛ إلا على

خفاش ينكر ظهور ضوء النهار "[١] قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ابراهيم: ٣٢ - ٣٤].

رابعًا: كفالة حقوقه؛ إن حقوق الإنسان محترمة في الإسلام؛ وهي حقوق مكفولة لكل الناس؛ حتى أولئك الذين يرفضون الإسلام ويعادونه؛ لأن الدين يقوم على الإختيار وليس على الإكراه، والإيمان لا يعطي المؤمنين حق التعدي على حقوق الآخرين؛ بل دافع الإسلام عن الكافرين به وأدان من آمن به عندما اعتدى المؤمن على حقوق غير المؤمن! لأن التشريع الإسلامي جاء داعيًا لبسط العدل مع كل الناس، ونهى عن الظلم والعدوان، ولذلك نجد القرآن دافع عن اليهودي وبرّأه، وأدان المسلم؛ لأن معيار العدل واحد؛ يطبق على كل الناس؛ فعندما سرق طعمة بن أبيرق - أحد بني ظفر من الأنصار - درعًا وانكشف أمره؛ جاءت عشيرته إلى رسول الله تطلب إلحاق التهمة باليهودي وتبرئة المسلم! لأن اليهودي حسب ظنهم لاحرمة له في مقابل المسلم! وتصحيحا لهذا الفهم الخاطئ؛ أنزل الله سبحانه وتعالى تسع آيات تبرئ اليهودي وتدين المسلم؛ وتطلب من رسول الله ﷺ أن يستغفر الله لاستماعه إلى عشيرة طعمة! ولاعتقاده أن المسلم ربما يكون صادقًا قبل التحقيق؛ جاء النص القرآني مبينًا للعالم كله؛ أن من اكتسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه، وأنه لا

(١) راتب الامام المهدى عليه السلام : مجموعة أذكار وأدعية مأثورة وابتهالات عميقة المعانى

ربط بين الإسلام وبين تجاوزات المنتمين إليه. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلٗا ١٠٩ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣ ﴾ [النساء: ١٠٥ – ١١٣] فهذه دعوة صريحة بأن الإختلاف مع الآخر أيا كانت عقيدته؛ لا يسقط حقه في العدالة، وأنَّ الإنتماء للإسلام لا يعطي حصانة للمسلم عندما يرتكب المحظور، لا بد من تصحيح النظرة التي تحرم المخالف من كل فضل وتضخم الذات بدون جهد.

خامسًا: إحاطته بالرحمة؛ فالإسلام دين الرحمة، ورسوله جاء رحمة مهداة، والله سبحانه وتعالى أرحم بنا من أمهاتنا، وتجلت مظاهرالرحمة في كثير من الأحكام والتعاليم، منها التدرج في الأحكام مراعاة للبيئة المحيطة، ومنها التخفيف في الأحكام مراعاة للطاقة البشرية، والعفو عن الصغائر، وقبول التوبة، ومضاعفة الحسنات، وإذهاب السيئات بها؛ فالإسلام رحمة كله قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ

ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣] إن مكانة الإنسان في الإسلام عظيمة؛ عليه أن يدركها ويحصنها بالشكر والعمل الصالح قال تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس: ١٧ – ٣٢]

منهج الوسطية و التحديات

أولا : التعامل مع الوافد من الماضي :

الوافد من الماضي قسمان وحي، واجتهاد بشري في فهم نصوصه. قال المقلدون إن السلف قد انبروا لنصوص الوحي وبوسائل الاجتهاد الصحيحة من قياس وإجماع؛ استنبطوا المبادئ والأحكام؛ فصارت ملزمة للكافة. وقال المنبهرون بالوافد من الحاضر: إن الزمن قد تجاوز رسالة الإسلام، ولكي ننهض فإن علينا أن نتمسك بالحضارة الحديثة؛ لأنها تمثل مستقبل الإنسانية. والمنهج الوسطي قال: إن القطعي، ورودا ودلالة من حقائق الوحي، ملزم للكافة، ولكن بعض مفردات الوحي ظنية الورود كما في أغلب السنة، وبعضها ظنية الدلالة كما في القرآن والسنة. ونصوص الوحي نفسها توجب على الناس تدبرها، معتبرين المقاصد، ومستخدمين الحكمة، والعقل، والمنفعة، والإلهام، والسياسة الشرعية، تحقيقا للتوفيق بين الالتزام بقطعيات الوحي واستصحاب المستجدات.

ثانيا : التعامل مع الوافد من الخارج

المنكفئون يرون أن هدينا محيط بكل شيء؛ ولذلك لايحتاج إلى عطاء إنساني. والمستلبون يرون عكس ذلك تماما. و الموقف الوسطي يقول: إن كتابنا المسطور نفسه وسنة النبي، ﷺ، يؤكدان وجود إخاء إنساني، وإخاء كتابي؛ يفتح باب المقارنة والمقاربة؛ ويؤكدان أن الكون نفسه كتاب منشور

أودعه الله فيه سننا؛ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨٥] والإنسانية مكلفة باكتشاف تلك السنن لمعرفتها وتسخيرها. وأنه تكليف للإنسان كل الإنسان مهما اختلفت مله ونحله، فتبادل المعرفة مطلوب، ووسائل تسخيرها متاحة للناس أجمعين.

ثالثا: اختلافات أهل القبلة

واقع الحال هو أن أهل القبلة مختلفون فرقا ومذاهب واجتهادات. بعض أهل القبلة ينطلق من عبارة الفرقة الناجية ويدعيها لنفسه؛ ويستشهد بنصوص قرآنية معينة يخرجها عن سياقها؛ وعلى أساسها يصدر أحكام التكفير للفرق والمذاهب الأخرى. أهل الشهادة بموجبها أمة واحدة وهنالك قطعيات يؤمنون بها جميعا ويختلفون فيما عداها.

إن اختلافات أهل القبلة نوعان: نوع اختلاف اجتهادي له ما يبرره؛ واختلاف اجتهادي قائم على سوء الفهم. هذا النوع ينبغي أن يجرى فيه حوار جاد؛ لتوسيع دائرة الوفاق. ونوع من الاختلاف يصعب تجاوزه. هذا النوع ينبغي أن يعذر الجميع بعضهم بعضا فيما اختلفوا فيه. منهج الوسطية يقول: الواجب على علماء الأمة ومفكريها إجلاء هذه الأمور وإصدار نداء المهتدين المؤسس لإخائهم.

رابعا: الموقف من الإصلاح السياسي

الشورى هي ديمقراطية مرتبطة بسقف شرعي. والديمقراطية هي شورى مرتبطة بمؤسسات تضبطها؛ والاثنان يتفقان على أربعة مبادئ: المشاركة ـ المساءلة ـ الشفافية ـ سيادة القانون. هذه المبادئ هي المطلوبة للحكم الراشد.

والوسطية تؤمن بالحكم الراشد وتعمل لتحقيقه بحيث تصير النظم الملكية ملكية دستورية، والنظم الجمهورية جمهورية ديمقراطية.

خامسا: الإصلاح الاقتصادي

التنمية البشرية التي تحقق نموا اقتصاديا، وتوفيرا للخدمات الاجتماعية، وتوزيعا عادلا للثروة؛ هدف إسلامي مثلما هي هدف إنساني والوسطية تتطلع لها وتعمل على تحقيقها.

سادسا: العلاقة مع الآخر الملي والآخر الدولي

الإسلام يعترف بالتعددية الدينية، والتعددية الدولية؛ والفهم الهجومي المقترن بجهاد الطلب؛ فهم انتقائي لأحكام الإسلام قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ ﴾ [الممتحنة: ٨] والإسلام يوجب الالتزام بالعهود مهما اختلفت العقائد. الوسطية تقول إنّ واجبنا التسامح والتعايش مع الملل الأخرى على أساس المعاملة بالمثل، كما أن علينا التعاون مع الدول الملتزمة بالعدالة والسلام. وأما المعتدين والمحتلين فالواجب الديني والقانوني هو التصدي لهم ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ﴾ [الحج: ٣٩]

سابعا: الإرهاب

عبارة إرهاب ترجمة غير صحيحة للمعنى، والصحيح هو الإرعاب. الوسطية تقول: إنّ العنف في الإسلام له ضوابط هي: أن يوجه ضد الظلم والعدوان، وألا يطول الأبرياء. وأن مقصده حماية حرية العقيدة والدعوة وحماية المقدسات لكل الأديان؛ الإسلام براء من إرعاب خال من هذه

الضوابط.

ثامنا: العلمانية

العلمانية اشتقاق على غير قياس من العالم؛ وهي نحلة ترى أن الحقيقة مستمدة من عالم الشهادة وحده؛ أي العالم الزماني المكاني. العلمانية بهذا الفهم تناقض الدين. ولكن التجربة زحزحت العلمانية من هذا الفهم المتعدي. العلمانية المعتدلة تلتقي مع الوسطية في كفالة حرية الأديان، وكفالة حقوق المواطنة للكافة، والتناوب السلمي على السلطة عبر انتخابات حرة.

تاسعا: العولمة

العولمة تمثل حلقة جديدة من إنجاز الإنسان؛ نتيجة لثورة المعلومات والاتصالات والسوق الحر. ولكن في الظروف الحالية في العالم؛ فإن القوة الاقتصادية، والإستراتيجية، والإعلامية؛ جيرت العولمة لصالح الولايات المتحدة فصيرتها أمركة. الوسطية توجب التعامل الإيجابي مع العولمة والاحتماء من الأمركة، والحرص على الخصوصية الثقافية.

هكذا فإن منهج الوسطية يسعفنا في التعامل مع هذه القضايا الهامة وغيرها، والنتيجة دعوة للتحرر من التقليد، ومن الاستلاب، ومن الهيمنة الأجنبية، ومن الحكم الاستبدادي.[1]

(١) الإمام الصادق المهدي، الخيارات الحركية في العالم الإسلامي بتصرف

الفصل الثالث

نظرة موضوعية للإختلاف

لقد جاء الإسلام بمفاهيم صححت كثيرا من المعتقدات والممارسات التي كانت سائدة في الحياة الجاهلية، فالشرك صحّحه بالتوحيد، والظلم الاجتماعي صحّحه بالعدالة الاجتماعية، والتمايز الطبقي صحّحه بالمساواة، وهكذا في كل شئون الحياة كان الإسلام ينقض الأساس القديم الظالم ويحل محله أساساً جديداً أصلح للانسان؛ فاستطاع أن يُغير الأوضاع ويتمدد على ربوع الأرض المعمورة في زمن وجيز، وبصورة فاقت ما حققته اليهودية والنصرانية في قرون ! لقد كان الإسلام بلسماً عالج جراحات وآلاماً عانى منها المستضعفون والمقهورون زمناً طويلاً، ورفد الإنسانية بمبادئ حققت في الكون عدلاً وتسامحاً في العلاقات البشرية، ونهضة في العلوم والمعارف، ورحمة للعالمين في جميع نواحى الحياة، غير أنّ هذا العطاء بدأ في التناقص والتراجع لعدة أسباب أهمهاالنظرة الخاطئة للإختلاف.

لقد هيمنت على الأمة مفاهيم تضخم من الخلافات داخل الملة، وتخرجها من مجال الإجتهاد المأجور صاحبه في الحالتين - إن أخطأ وإن أصاب- إلى مجال الخلاف بين حق وباطل، وبين هدى وضلال، وأُوِّلَت نصوص كثيرة تأويلاً يعمق الخلاف بين الأمة ويغير طبيعته، وفُسِّرت نصوص السنة التي تحدثت عن إختلاف الأمم تفسيراً حصر معنى الأمة في المسلمين، مع أن كلمة الأمة تحتمل بعداً أوسع يدخل فيه كل الذين عاشوا في عصر الرسالة الخاتمة؛ باعتبارهم أمة محمد ﷺ، ويتوزعون بين أمة البلاغ وأمة الإجابة، بهذا الفهم الواسع نستطيع إدراك معنى الأحاديث التي تناولت موضوع الإختلاف الذي سيعتري الأمة وتكون الناجية فرقة واحدة والباقون هلكى! مع أن علماء

الحديث تحفظوا على صحة الحديث؛ لأنه يناقض نصوصا محكمة أكدت أن الخير باق في هذه الأمة حتى قيام الساعة؛ عليه ينبغي أن نحدد أولاً طبيعة الإختلاف داخل الملة الإسلامية والعوامل المؤدية إليه؛ حتى يحصر في إطاره.

طبيعة الإختلاف داخل ملة الإسلام:

الخلاف والإختلاف بمعنى واحد؛ هو المغايرة. وهنالك نوعان من الإختلاف هما: اختلاف التنوع، واختلاف التصادم. اختلاف التنوع محمود؛ لأنه يقوم على التخصص، والتكامل؛ ينطلق من مرجعية واحدة، يهدف لتحقيق غاية واحدة. وأقرب مثل لإختلاف التنوع نجده في اختلاف وظائف الأعضاء في الجسد الواحد؛ فالعينان للنظر، والأذنان للسمع، والانف للشم، واللسان للتذوق، واليدان للبطش، والرجلان للسعي؛ وكلها تعمل في تكامل لخدمة صاحبها، وتحقيق مصلحته؛ بل إذا تعطلت وظيفة أي عضو اختل البناء الإنساني. ومن أمثلة إختلاف التنوع في الإسلام إختلاف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حول التعامل مع أسرى بدر؛ فأبو بكر دعا للعفو وعمر دعا لقتلهم؛ واختلاف الصحابة في كثير من المواقف.

أما اختلاف التصادم فهو مذموم؛ لأنه يتحول الى نزعة اقصائية متعصبة وحاقدة؛ لا يرى صاحبها الحق إلا ما وافق هواه. فيحصل النزاع والشقاق؛ مما يؤدى إلى إضعاف الأمة وذهاب ريحها كما أوضح القرآن الكريم: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

العوامل الموضوعية للإختلاف:

الإنسان خلق حراً ذو إرادة، وهذه الحرية تعطيه القدرة على الإختيار بين

البدائل، فالقرآن يشير إلى أنّ الإختلاف بين الناس وراؤه حِكمة إلهية؛ لأن الله سبحانه وتعالى منزّه عن العبث في أفعاله؛ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١١٨ – ١٢٣].

والإختلاف الذي حدث ويحدث داخل ملة الإسلام هنالك أسباب موضوعية تجعله مبرراً بل وضرورياً في بعض الأحيان؛ لأن الشعوب التي يخاطبها دين الإسلام شعوب مختلفة العادات والطبائع والأعراف والتقاليد، وعالمية الإسلام تعني مخاطبته لكل العالمين، وهم يعيشون في بيئات مختلفة، وأحوال مختلفة، وأزمان متعاقبة، فلا بد للدين الخاتم أن يستجيب لهذا الإختلاف وهذا التنوع؛ لأن هذه الإستجابة من شروط عالمية الدين وخلوده. والعوامل التي تجعل الخلاف الإجتهادي في داخل الملة واقعاً حتمياً ومشروعاً كثيرة أذكر منها الآتي:

أولاً: اللغة:

مصدر التشريع الأول في الإسلام هو القرآن الكريم؛ وقد نزل باللغة العربية الفصيحة، والعربية حبلى بالمعاني؛ فقد تحمل الكلمة الواحدة أكثر من معنى، وتعدد المعاني يؤدى لاختلاف الأحكام. من ذلك مثلا: وردت في القرآن الكريم عدة المطلقة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى

ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨﴾ [البقرة: ٢٢٨] القروء: جمع قرء، والقرء له معنيان: فالقرء بمعنى الحيض؛ والقرء بمعنى الطهر من الحيض. فمن أخذ القرء بمعنى الحيض أفتى بأن المرأة المطلقة تخرج من عدتها بمجرد دخولها في الحيضة الثالثة. ومن أخذ القرء بمعنى الطهر من الحيض فالحكم عنده أن المرأة المطلقة لا تخرج من عدتها إلا بعد طهرها من الحيضة الثالثة. فهنا نجد أن اختلاف الحكم راجع إلى تعدد المعنى في اللغة.

ثانياً: اختلاف القراءات:

القرآن نزل على سبعة أحرف؛ أي أن صيغ المفردات اللغوية، والتعبيرات داخل اللغة العربية التي نزل بها القرآن سبعة؛ وعلى هذا الأساس جاء اختلاف القراءات. فمثلاً جاء في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: ٦] قرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص: (وَأَرْجُلَكُمْ) بنصب اللام عطفًا على الأيدي، فالأيدي تُغسل والأرجل تُغسل على هذه القراءة. وقرأ أبوعمرو بن العلاء وحمزة وشعبة (وَأَرْجُلِكُمْ) بجر اللام عطفًا على الرؤوس؛ فالرأس يُمسح والأرجل تُمسح على هذه القراءة، وقال الجمهور: إنَّ جرَّ أرجلكم جاء على الجوار والإتباع. وحمزة والكسائي في قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾

قرآها (أو لمستم النساء) فالحكم يختلف بين اللمس والملامسة.

كذلك قرأ حمزة والكسائي في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ [الحجرات: ٦] قرآها (فَتَثَبَّتُوا) بدَل (فتبينوا) وهنالك فرق في الحكم بين التثبت والتبيّن؛ فالتثبت يعنى الإنتظار حتى تتضح الحقيقة والتبين يوجب البحث لمعرفة الحقيقة.

ثالثاً: السنة النبوية:

قُسِّمَت السنة الى ثلاثة أقسام كبيرة تحتها فروع، هي: السنة المتواترة، والسنة المشهورة، وسنة الآحاد، وقد اختلف الأصوليون حول السنة لأسباب ترجع بعضها إلى الرواية: من حيث الجرح والتعديل، فقد يكون الراوي ثقة عند بعض علماء الحديث، وقد يُجَرِّحُه عالم آخر لعلة ظهرت له، وقد يصح السند عند بعضهم فيُقبل، وقد لا يصح عند آخرين فيُرد، ومن حيث الدراية فقد يقبل الحديث من حيث الرواية، ويرد دِرَاية؛ لأنه يناقض أصلاً أقوى منه، وبعض أسباب الأختلاف ترجع إلى الناسخ والمنسوخ؛ فقد يقف أحد الفقهاء على حديث ناسخ لحديث لم يقف عليه غيره، وقد يكون الخلاف حول حجية حديث الآحاد ونطاق تطبيقه، وتوجد أسباب كثيرة في هذا المجال تعرض لها الأصوليون في مظانِّها، كما أنّ السنة لم تدون بصفة رسمية إلا في القرن الثاني الهجري في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز؛ والأحاديث جاء تصنيفها من حيث الصحة والحسن والضعف والدرجة؛ وفقًا لمناهج علماء الحديث؛ وهي مناهج من وضع المجتهدين. والسنة ليست على مرتبة واحدة: ففيها القطعي،

وأغلبها ظني، والأحاديث جاءت متفرقة حسب الحوادث على مدى ثلاثة وعشرين عامًا، ولم تُرَتَّب ترتيبًا زمانيًا بل حسب موضوعاتها، وبعض الناس سمعوا حديثًا في زمن ما وتفرقوا في الأمصار وربما أتى حديث لاحق ناسخ للسابق ولم يسمعوا به. وهذا ما دعا الإمام مالك أن يقول للمنصور عندما رأى أن يلزم الناس بالموطأ؛ قال له: (يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وأتوا به من اختلاف الناس، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم..)[١]. فالإمام مالك بهذا يقر بحق الآخر المختلف، ويجد له مسوغا مشروعًا، ولا يهمل اختلاف البلدان وما يتبعه من إختلاف العادات والطبائع، ويفهم من كلامه أنه يتمتع بسعة أفق وسماحة غابت عن المتأخرين من بعض أتباع مذهبه الذين عبر عنهم صاحب جوهرة التوحيد بقوله:

ومالك وسائر الأئمة كذا أبو القاسم هداة الأمة
فواجب تقليد حبر منهم كذا حكى القوم بقول يفهم[٢]

والسنة جاءت متنوعة؛ فهناك سنة تشريعية؛ وأخرى تصنف ضمن العادات البشرية، وأخرى تعتبر من الخصوصيات النبوية؛ وهي تنقسم الى أربعة أقسام: وحي، وفتيا، وقضاء، وسياسة شرعية، فالوحي والفتيا سنة تشريعية ملزمة للأمة؛ والقضاء أصدره الرسول بحسب حيثيات القضية والبينات التي ظهرت

(١) حجة الله البالغة للدهلوي (٣٠٧)

(٢) متن جوهرة التوحيد تأليف برهان الدين ابراهيم بن ابراهيم اللقانى ص(١٩) الطبعة الثانية ٢٠٠٥م دارالسلام للطباعة والنشر – القاهرة

له، ولذلك قال ﷺ: (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار)(١). والسياسة الشرعية تقوم على المصلحة والتقدير الظرفي في الوقت المعين والزمان المحدد والحالة المعاشة؛ لأن الظروف تتغير والأحكام تتغير تبعًا لتغير أحوالها وأزمانها وقد لخص هذا الأمر الإمام المهدي بقوله: "لكل وقت ومقام حال ولكل زمان وأوان رجال"(٢).

رابعاً: مصادر التشريع:

أجمع المسلمون على أن الكتاب والسنة هما المصدران الأساسيان للتشريع في الإسلام، واستنبطوا منهما المصادر الأخرى كالإجماع، والقياس؛ هذه المصادر تعتبر مصادر أصلية عند أهل السنة، وهناك مصادر فرعية: كعمل أهل المدينة، والإستصحاب، وشرع من قبلنا، والإستحسان، والمصالح المرسلة، وغيرها من المصادر الفرعية المعروفة. هذه المصادر الفرعية اختلف الفقهاء حولها بين مضَيِّقٍ ومُوَسِّعٍ ومقدم ومؤخر، وهنالك أصول منسوبة لأئمة الفقه هي في الواقع مُخَرَّجَةٌ على أقوالهم، هذا الإختلاف حول مصادر التشريع أدى إلى اختلاف في الفتاوى والآراء.

خامساً: مشروعية الإجتهاد:

لقد أقرّ الإسلام الإجتهاد وحث عليه؛ فقد ثبت أن رسول الله ﷺ أقرّ اجتهاد

(١) أخرجه البخارى في صحيحه (٧١٦٩) في كتاب الأحكام مكتبة الإيمان

(٢) ابو سليم : الآثار الكاملة للإمام المهدي : الجزء الأول دار النشر جامعة الخرطوم

صحابته في حياته في مواضع شتى؛ فقد استمع رسول الله ﷺ لآراء متباينة من صحابته فلم يُعَنِّفْهُم؛ بل تقبل ذلك برحابة صدر واحترام. قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثتا الأعمش عن عمرو بن مرة عن عبيدة عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: (ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟ قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يا رسول الله أخرجوك وكذبوك قربهم فاضرب أعناقهم. قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب فأدخلهم به ثم أضرمه عليهم نارا. قال: فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئا. فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس يأخذ بقول عمر، وقال ناس يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. فخرج عليهم فقال: إن الله لَيُلِينَ قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [ابراهيم: ٣٦] ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦] وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨] أنتم عالة فلايبقين أحد إلابفداء أو ضربة عنق)[1]، وقد طبق المسلمون الإجتهاد في مراحل متعددة من تاريخهم، ذكر الشعبي عن شريح أنه قال: قال لي عمر: (اقض بما استبان لك من كتاب الله،

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٢٩٨)

فإن لم تعلم كل كتاب الله فاقض بما استبان لك من قضاء رسول الله ﷺ، فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله ﷺ، فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين، فإن لم تعلم كل ما قضت به أئمة المهتدين، فاجتهد رأيك واستشر أهل العلم والصلاح)[١] ففي كلام عمر مرونة شديدة؛ حيث طلب من شريح أن يقضي بما استبان له، ومعلوم أن الإستبانة نسبية، فقد يستبين الأمر للإنسان في وقت ولا يستبين له في وقت آخر، وأوضح نص على مشروعية الإجتهاد قوله ﷺ: (إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر)[٢] كذلك يفهم معنى الإجتهاد من قوله تعالى: ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢] فمن الطبيعي أن تختلف اجتهادات الفقهاء وفقاً لظروف كل فقيه وقدرته على الإستنباط والبيئة التي عاش فيها؛ خاصة وأن الإسلام أعطى المجتهد أجرين إن أصاب، وأجراً واحداً إن أخطأ، ما دام ملتزماً بشروط الإجتهاد.

سادساً: إقرار الرسول للإختلاف النوعي والمحافظة عليه في إطاره:

كان كثير من الصحابة رضوان الله عليهم فقهاء مجتهدون، واختلفوا حتى في حياته ﷺ في مواقف كثيرة أقرّهم عليها، وأشهر تلك المواقف اختلاف أبي بكر وعمر حول التعامل مع أسرى بدر، كما سبق. واختلافهم في صلح الحديبية، واختلافهم في الخروج من المدينة في غزوة أحد، واختلافهم في صلاة العصر

(١) إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية المجلد الأول ص: (١٦٤) دار الحديث القاهرة

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه (٧٣٥٢) في كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة مكتبة الإيمان القاهرة

عندما أمروا ألا يصلوا إلا في بني قريظة، كما أن كل واحد منهم تميز بصفة دون غيره حتى اشْتُهِر بها، ومع مرور الزمن صارت الصفات الفردية والإهتمامات الشخصية مدارس داخل الأمة؛ قال ﷺ: (أرحم هذه الأمة بها أبو بكر، وأقواهم في دين الله عمر، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقضاهم علي بن طالب، وأصدقهم حياءً عثمان بن عفان، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأبو هريرة وعاء من العلم، وسلمان عالم لا يدرك، ومعاذ بن جبل أعلم الناس بحلال الله وحرامه، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبوعبيدة بن الجراح)[1].

والمدارس الفقهية تطورت من مناهج فردية للصحابة الفقهاء حسب البيئات التي عاشوا فيها والخلفيات الثقافية لكل واحد منهم؛ فأصبحت مع مرور الزمن مذاهب فقهية، واشتهر عند الفقهاء تشدد ابن عمر، ووسطية ابن مسعود، ورخص ابن عباس.

سابعاً: المستجدات:

كما هو معروف فإن النصوص متناهية والحوادث غير متناهية، والممارسة العملية تبرز تحديات تحتاج إلى معالجة، واجه هذا التحدي الصحابة يوم وفاة الرسول ﷺ فاختلفوا هل مات الرسول أم لم يمت؟ وكان عمر بن الخطاب

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٦/ ٢٠١) والعجلونى في كشف الخفاء (١/ ١١٨) والعقيلى في الضعفاء (٢/ ١٥٩) . الخضراء السماء . المختار(١٣٩) المصدر: موسوعة أصول الفكر السياسى والإجتماعى والإقتصادى من نبع السنة الشريفة وهدي الخلفاء الراشدين . إعداد خديجة النبراوى المجلد الثانى (١٠٨٥)

رضي الله عنه من أشهر الرافضين للقول بموت الرسول وجرّد سيفه قائلاً: إنه سيضرب كل من يقول إن الرسول قد مات، حتى جاء أبو بكر رضي الله عنه وتلى الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وبرر عمر موقفه ذلك بقوله لا بن عباس في خلافته: (يا ابن عباس هل تدري ما حملني على مقالتي التي قلت حين توفي رسول الله ؟ قال: قلت لا أدري يا أمير المؤمنين أنت أعلم، قال: فإنه والله ما كان الذي حملني على ذلك إلا أني كنت أقرأ هذه الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فوالله إن كنت لأظن أن رسول الله ﷺ سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها؛ فإنه الذي حملني على أن قلت ما قلت)[١]؛ إذاً فهو لم يقف موقفه ذاك لأنه صدِمَ فحسب؛ ولكنه قاله عن فهم واجتهاد، فلما ظهرت له الحقيقة امتثل لأمر الله. كذلك اختلفوا في مكان دفن الرسول ﷺ حتى حسم ذلك أبو بكر بقوله: سمعت من الرسول يقول: (ما قُبِضَ نَبِيٌّ إلا دفن حيث قبض؛ فرفع فراش رسول الله ﷺ الذي توفي فيه فحفروا له تحته)[٢]. كذلك اختلفوا في أمر خلافته: (فقال الأنصار أنهم أحق بخلافته؛ لأنهم آووه ونصروه وقبض عندهم. وقال المهاجرون إنهم أحق بها؛ لأ نهم أهل السبق في الإسلام، وأنهم هاجروا معه وتركوا أموالهم وديارهم نصرة للدين؛ وأن العرب لا تدين إلا لقريش. وغضب بنو هاشم لأنهم غُيِّبُوا عن

(١) سيرة ابن هشام : (٢ / ٦٦١ ـ ٦٦٦)

(٢) البداية والنهاية لابن كثير(٥/ ٢٣٣) والسيرة النبوية لابن هشام الجزء الرابع ص(٢٠٧) مكتبة دار التقوى – القاهرة طبعة ١٩٩٩م

الشورى لانشغالهم بتجهيز جثمانه ﷺ)[١] واختلفوا حول مانعي الزكاة هل يحاربونهم أم لا ؟ واختلفوا في تقسيم الخراج.. وهكذا فرضت المستجدات واقعـًا جديداً اقتضى اجتهاداً لمواجهة تحدياته وقضاياه التي لم تكن موجودة في حياة النبي ﷺ؛ وخلاصة القـول: أن هنالك أسبابا موضوعية ـ سبق ذكرها ـ تجعل الإختلاف أمراً حتميـًا وضروريـًا. ولهذا الإختلاف فوائد كما يقول الدكتور: طه بن جابر العلواني منها: (أنه يتيح التعرف على جميع الإحتمالات التي يمكن أن يكون الدليل قد رمى إليها بوجه من وجوه الأدلة. وثانيـًا: إنه يتيح رياضة للأذهان وتلاقحـًا للآراء، ويفتح مجالات التفكير للوصول إلى سائر الإفتراضات التي تستطيع العقول المختلفة الوصول إليها. وثالثـًا: إنه يتيح تعدد الحلول أمام صاحب كل واقعة ليهتدي إلى الحل المناسب للوضع الذي هو فيه بما يتناسب مع يسر هذا الدين الذي يتعامل معه الناس من واقع حياتهم)[٢]. إنها فوائد يؤكدها الإنتاج الفقهي والفكري الذي تذخر به الساحة الإسلامية، ويصدقها الواقع الذي أفرز قضايا معقدة تمكن الفقهاء من التعامل معها.

إن الإختلاف بهذا الفهم ضرورة إسلامية؛ ولكنه يصبح وبالاً عندما يتحول إلى شقاق وفجور في الخصومة؛ وهذا ما حدث في عصر الخوارج وعصرنا هذا؛ حيث تصدى للفتوى من لا فقـه له ففرض على الناس فهمـًا قاصراً وحاكمهم على أساسـه. وحمل لواء الإسلام الغلاة ففضلوا وأضلوا وشوهوا ديباجة الإسلام الوضاءة.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير: (٥/ ٢١٥ – ٢٢٢)

(٢) طه جابر العلواني : أدب الإختلاف في الإسلام ص (٢٥) ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي

إن اختلاف الناس حول الحوادث المعاصرة - مثل الإستفادة من تجارب الآخرين، والتعامل مع غير المسلمين، والأخذ بالنظم الحديثة التي أنتجها العقل البشري؛ كالديمقراطية، والأحزاب، ومنظمات المجتمع المدني، وكذلك الموقف من المرأة، والفن، والرياضة، والنظم الاقتصادية- وأخيراً الإختلاف حول الجهاد؛ كل هذه الإختلافات وغيرها ترجع الى منهج كل جماعة وطريقة تفكيرها ورؤيتها للخلاف. فمنهم من يضعه في إطاره النوعي، ومنهم من يغالي فيرفع سقفه فيُحِيله إلى خلاف بين حق وباطل! ولكن العلماء الربانيين يفهمون طبيعة هذا الاختلاف ويتعاملون على أساسه في كل الظروف، سأل بعضهم علي بن أبي طالب عن أهل الجمل الذين حاربوه: (أمشركون هم ؟ فقال ﷺ: من الشرك فرّوا. قال: أمنافقون هم ؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. فقال له السائل: من هم إذن ؟ قال كرّم الله وجهه: إخواننا بغوا علينا !!)[1]. فبالرغم من أنه الخليفة المبايع من جمهور الأمة، وقد خرج عليه أهل الجمل وشقوا عصا الطاعة، وفرّقوا كلمة الأمة، وسالت دماء كثيرة؛ لكن أمير المؤمنين لم يغب عن ذهنه أنه حامي رسالة وليس منتصراً للذات، ولا منتقماً يجرِّد خصمه من أي فضيلة، وهذه الروح لم تغب عن عظماء الأمة في عصورها المتعاقبة فأبو حنيفة يقول: (هذا الذي نحن فيه رأي لا نجبر أحداً عليه، ولا نقول يجب على أحد قبوله بكراهية، فمن كان عنده أحسن منه فليأت به)[2] فالمؤمن دائماً طالب حق لا يتعصب لرأيه إن ظهر له الصواب عند غيره.

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٨ / ١٧٣)
(٢) الإنتقاء (١٤٠)

ومعلوم أنه في عصر التابعين ظهرت مدرستان: مدرسة أهل الحديث التي قامت على فقه الصحابة وآثارهم؛ وكان على قمتها سعيد بن المسيب وعليها اعتمد المالكية والشافعية والحنابلة. ومدرسة أهل الرأي التي تعتمد على الرأي إن غاب الأثر وكان على قمتها إبراهيم النخعي. وعليها سار الأحناف دون أن يكفر بعضهم بعضاً؛ بل في عصور لاحقة عندما احتك كل فريق ببيئة الفريق الآخر؛ أدرك أسباب هذا الإختلاف بينه وبين نظيره.

غير أننا ابتلينا في هذا العصر بحفظة نصوص لايملكون ملكة الفقه المتمثلة في الإحاطة بالموضوع محل الحكم، ومعرفة الواقع الذي تتنزل عليه الأحكام ـ فعدم الربط بين النص والواقع وعدم ربط كل ذلك بالمقاصد يؤدي إلى إصدار أحكام قاصرة توقع الناس في الحرج.

إنّ كثيراً ممن تصدوا للفتوى في عصرنا هذا يمكن وصفهم بأنهم حفظة نصوص ولكنهم ليسوا فقهاء، فالفقيه من يمتلك القدرة على استنباط الأحكام من النصوص مع اعتبار الواقع ومراعاة المقاصد. فإصدار الحكم دون مراعاة الواقع وتعقيداته؛ لا يحقق مقاصد التشريع. فلا بد لمن يتصدى للفتوى أن يدرك طبيعة الواقع المعاصر بتعقيداته، وعلاقاته السياسية والإقتصادية، والإجتماعية، والإدارية؛ حتى تكون فتواه قابلة للتنزيل. والفتوى الفردية فى القضايا الكبرى المتداخلة والمعقدة لا تكون مجدية في هذا العصر الذي توفرت فيه المعلومة بصورة غير مسبوقة، فهناك ضرورة إلى قيام مؤسسات للفتوى تضم كل التخصصات الشرعية والطبية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية وغيرها؛ يجتمع فيها علماء الشرع، وعلماء السياسة، وعلماء الإقتصاد، وعلماء الطب، وعلماء الإجتماع، وعلماء الفلسفة، ومتخصصون في

العلاقات الدولية، وعلماء القانون؛ حتى تتمكن من إصدار فتاوى تقل فيها نسبة الخطأ وتكون جامعة مانعة.

إن من المنكرات في هذا العصر؛ بروز ظاهرة إطلاق التهم والأحكام جزافًا: فهذا كافر؛ لأنه أدلى بتصريح يخالف هوى المفتي، وذاك زنديق؛ لأنه تبنى فكرة لا يعرف المفتي كنهها، وآخر مرتد؛ لأنه اتخذ موقفًا يتعارض مع موقف المفتي. هذه الفتاوى التكفيرية تدخل في إطار البدعة؛ لأنه لم يُعرف عن الرسول ﷺ أنه أطلق مثل هذه الأحكام بهذه الصورة؛ بل كان نهجه النهي عن التكفير، قال ﷺ: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)(١).

إن دراسة سيرة الرسول القدوة بعقول واعية؛ ستبين المنهج الصحيح للتعامل مع الناس، وتبين سماحة الإسلام، وتمكن الفقهاء من تحويل أحكام الإسلام لواقع ملموس تتحقق فيه مقاصد التشريع، وتساعد الأمة على محاصرة نهج التشدد والتكفير والتضييق على الناس، فالإسلام دين الرحمة والتيسير ورفع الأصر والحرج، وهو لا يتصادم مع الفطرة مطلقًا قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠] إنّ فهم الرأي الآخر، والفكر الآخر، والإجتهاد المخالف في إطار التنوع؛ يعتبر أول خطوة في منهج الإصلاح الداخلي، وتوفير الطاقات المهدرة في الصراعات؛ لتوظيفها للنهضة في كافة مجالاتها، علينا أن نُسْقِطَ من قاموسنا عبارات [كافر وملحد وزنديق

(١) متفق عليه رواه البخارى في صحيحه (٤٨) ومسلم (١١٦) مكتبة الإيمان – القاهرة

وخائن وعميل ومهزوم..الخ] في مجال خلافاتنا الفكرية والسياسية. ومطلوب منا أن نجد مساحة في داخلنا لقبول الإجتهاد المخالف أو تفهمه على أقل تقدير[١]..

(١) هذا الجزء منقول من بحث بعنوان : الحوار في الإسلام حقائق ونتائج بقلم المؤلف

الفصل الرابع

الرسالة الخاتمة هي المخرج

دين الله الذي أنزله لبني آدم دين واحد هو الإسلام جاء به جميع رسل الله من لدن آدم وإلى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ مع اختلاف في الشرائع، فهو سبحانه وتعالى اصطفى الأنبياء والرسل وأرسلهم على فترات لهداية البشر إلى الصراط المستقيم، ولإخراجهم من الظلمات إلى النور. والمجتمعات البشرية مرّت بنفس المراحل التي يمر بها الإنسان الفرد: مرحلة التكوين، فالميلاد، فالطفولة، فالتعلم، فالتجارب، فالنضج. وكل مرحلة أنزل الله لها ما يلائمها من تشريع ولذلك نجد أن خطاب الأنبياء اتفق في العقائد وتنوع في التشريعات، فنوح عليه السلام ركز على التوحيد ونفي الشرك والمساواة بين الناس؛ لأنه أول رسل الله بعد آدم عليه السلام، وهود وصالح بعد التوحيد كان اهتمامهما يتركز على إبراز مظاهر قدرة الله؛ لأنهما أرسلا لمخاطبة قوم اغتروا بقوتهم وقدرتهم، وشعيب ركز على محاربة الفساد الاقتصادي، ولوط كانت دعوته موجهة ضد الإنحلال الخلقي والشذوذ، وموسى استهدف إبطال السحر وهكذا.. مع إجماعهم على توحيد الله؛ كان كل رسول يخاطب قومه بما يعالج المشاكل التي يعيشونها؛ فالدين واحد والتشريعات مختلفة. قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى: ١٣] وقال تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) إن رسالة الإسلام التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ جاءت متضمنة لأصول الرسالات السابقة ومصدقة لها؛ فهي الحلقة الأخيرة في سلسلة الوحي الإلهي، وأكد هذا المعنى الرسول ﷺ بقوله: (مثلي ومثل الأنبياء

من قبلي كمثل رجل بنى بنيانـًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)[1].

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل(١١٨٧/ ٢٢/ ٢٢٨٦) مختصر صحيح مسلم للحافظ عبدالعظيم بن عبدالقوى المنذرى مكتبة الصفا القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٥م

خصائص الرسالة الخاتمة

لقد تبين مما سبق أن الإسلام جاء مكملاً للرسالات السابقة متضمناً لأصولها ومصدقاً لها ولكنه باعتباره الدين الخاتم فقد اختص بالآتي:

أولاً: العالمية

كانت الرسالات السابقة محدودة المكان ومحدودة الزمان ومقتصرة على قوم دون غيرهم، والقضايا التي جاءت من أجلها محددة، ولكن الإسلام جاء ديناً عاماً يخاطب كل الناس عبر كل العصور، وعالمياً لا يعرف الحدود المكانية ولا الزمانية، وأممياً لا يقتصر على قوم دون غيرهم، وشاملاً يخاطب كل قضايا الإنسان واهتماماته العقائدية، والعبادية، والسلوكية، والإجتماعية، والإقتصادية وغيرها من مطالب الإنسان.

ثانياً: الختام

رسالة الإسلام جاءت رسالة خاتمة لا تعقبها رسالة أخرى، لأن الله سبحانه وتعالى الذي خلق الخلق يعلم ما يصلحهم فتكفّل بإرسال الرسل إليهم متدرجاً معهم في كل المراحل، فلما وصلت البشرية مرحلة النضج أنزل إليها الرسالة الخاتمة قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ثالثاً: التيسير

الرسالات السابقة كانت متشددة مع أتباعها فجاءت أحكامها شاقة، وعقوباتها قاسية، فكل شخص مثلا كان لديه مكان معين يتعبد فيه لا يجوز له أن يتعبد في غيره، والنجاسة عندهم لا يزيلها الماء من الثوب، ومرتكب الكبيرة تعجل عليه العقوبة في الدنيا، ومن أراد أن يتوب فتوبته أن يقتل نفسه، قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة: ٥٤] هذا التشدد رُفِع عن الناس في رسالة الإسلام؛ فالتكاليف ميسرة، وتتصف بالمرونة؛ فمن لم يجد الماء ينتقل إلى التيمم، ومن لم يستطع القيام يصلي جالسًا، أو متكئًا، أو راقداً، أو بالإشارة، والتوبة متاحة لكل الناس ما لم تصل الروح إلى الحلقوم، ومن مبادئ الإسلام التيسير ورفع الحرج والتدرج ومراعاة الواقع..الخ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وتميّز الإسلام بخصائص كثيرة كلها تدخل في باب التكريم لهذه الامة والتخفيف عليها، وقد وردت هذه الخصائص في آيات كثيرة مثل الآية السابقة وأحاديث كثيرة منها: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: (أعطيتُ خمسًا لم يعطهن أحدٌ قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم

تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)[١] فالله سبحانه وتعالى أكرم هذه الأمة بالرسالة الخاتمة التي جاءت رحمة للعالمين ونعمة للمسلمين. قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ومن خصائص هذه الرسالة أنها جعلت العادات البشرية عبادات إذا اقترنت بالنية الخالصة لله ولم تتصادم مع تعاليم الدين، فالأكل إذا قصد به بناء الطاقة التى تساعدعلى الطاعة يكون عبادة، والزواج إذا قُصِد به التحصين وبناء الأسرة الصالحة يكون عبادة، والتبسم في وجه الأخ صدقة، وهكذا.. يسّر الإسلام طرق الطاعات وسهّل دخول الجنة للراغبين؛ عن أبي ذر رضي الله عنه؛ أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور؛ يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم؛ قال: (أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة؛ قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟! قال: أرأيتم إذا وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في

(١) رواه البخارى في صحيحه في كتاب التيمم (٢٢٤) مختصر صحيح البخارى المسمى التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح تأليف الامام زين الدين أحمد بن عبداللطيف الزبيدى مكتبة الصفا – القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٥م

الحلال كان له أجرا)[١]

○ مقومات صلاحية الرسالة الخاتمة

انتشرت في مؤلفات علماء الشريعة الإسلامية وفي أدبيات المفكرين الإسلاميين عبارة أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان؛ ولكن الواقع يجعل كثيراً من الناس يتساءلون إذا كان الإسلام كما يقول دعاته صالحاً لكل زمان ومكان فلماذا نرى واقع المسلمين يناقض هذا الادعاء؟ وهو سؤال مشروع لا يفيد وصْم أصحابه بالردة أو التآمر أو الجهل؛ بل الواجب هو تقديم الإجابة المقنعة؛ لأن القرآن الكريم تضمن أسئلة أخطرمن هذا السؤال، فأجاب عنها دون تقريع لأصحابها! بل جاءت أخطر الأسئلة من أنبياء الله ورسله، فموسى عليه السلام سأل ربه عن إمكانية رؤيته؟ فأجابه الله عن سؤاله بصورة عملية. قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وإبراهيم عليه السلام تدرج من الشك إلى اليقين مع أن كثيراً من العلماء يقولون إن قصده هو تعليم أمته بأن عبادتهم للأصنام باطلة! ولكن سياق الآيات يدعو للتفكير وإعمال العقل دون حصر قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا

(١) رواه مسلم في صحيحه (١٠٠٦) مكتبة الإيمان – القاهرة

رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٧- ٨٢] إذاً فالتدرج في الشك والتساؤل هو للتيقن وإقامة البرهان والدليل على العقيدة الصحيحة؛ وليس لإقامة الحجة على عبدة الأصنام فحسب؛ فإن أي تساؤل مشروع؛ خاصة إذا علمنا أن الإسلام جعل العقل شرطاً في التكليف، وحثّ على اتباع الدليل والبرهان؛ فلا مجال للتهرب من الإجابة عن أي تساؤل مهما كان في رأي البعض قاسياً أو غير لائق؛ عليه أقول: إن الادعاء بأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان هو ادعاء صحيح تصدقه الأدلة الآتية:

أولاً: المكان والزمان؛ مقصود بهما ظرفي الوجود الإنساني؛ فلا معنى لزمان ومكان في فراغ، فالصلاحية تستهدف الإنسان العاقل الطبيعي؛ لأن هنالك مجانين، ومصابين بانحراف في تفكيرهم فهؤلاء غير معنيين؛ فمن البديهي أن الشاذ لا حكم له، وبناء على ذلك نقول: إن الإنسانية منذ إيجادها وإلى اليوم استهدفت بالهداية من الرسل؛ وفي كل مرحلة من مراحل تاريخها وُجِدَ فيها من تصدى لدعوات الرسل معارضاً، ولكن في النهاية هُزِمَ الباطل وانتصر الحق، واستقر في عقل الإنساني الجمعي أهمية التدين، ووجود معيار للتمييز بين الخطأ والصواب، لقد سبق بيان أن الإسلام جاء مكملاً للرسالات قبله فمعنى ذلك أنه

صدقها، وتضمنت أحكامه أصولها التي هي قاسم مشترك في كل الرسالات السماوية، وهي: التوحيد والعدل وعقيدة البعث والجزاء الأخروي، إن اشتمال أحكام الإسلام لهذه الأصول يجعل كل إنسان بفطرته يصدق الإسلام وإن أبى مكابرة. قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل: ١٤] فاعتراف الإسلام بالرسالات السابقة واستصحابه لأصولها وبعض الأحكام الصالحة منها؛ يجعله صالحاً لمخاطبة أتباع تلك الأديان بما هو موجود في أديانهم.

ثانيا: الأحكام الإسلامية تنقسم إلى قسمين: أحكام ثابتة وأحكام متغيرة، فالأحكام الثابتة محصورة في العقيدة، والعبادة، وأصول الأخلاق؛ والأحكام المتغيرة ما عدا ذلك من الأحكام التي تغطي كل الساحة الإنسانية من المعاملات؛ لأن حاجات الإنسان متجددة، وعلاقاته متباينة، وبيئاته متنوعة، فإذا وُضِعَتْ أحكامٌ ثابتة في هذا المجال سوف يستحيل تطبيقها؛ ولذلك وضع الإسلام مبادئ عامة، ومقاصد كلية، وعللاً منضبطة؛ وترك للمسلمين تطبيق تلك الكليات بالوسائل التي تلائم ظروفهم المكانية والزمانية، وأعطاهم المشرع حق الإجتهاد لاستنباط الأحكام التي تصلح لأوضاعهم، فالرسول ﷺ أقرَّ الاجتهاد في حياته فضلاً بعد وفاته، والسيرة مليئة بالشواهد؛ ففي نزوله يوم بدر أخذ باجتهاد الحباب بن المنذر؛ وفي معاملة الأسرى أخذ برأي أبي بكر مع اقراره اجتهاد عمر الذي جاء القرآن مؤيدا له؛ وكذلك اقراره لاجتهاد الصحابة عندما أمرهم بصلاة العصر في بني قريظة، وفي إعطائه المجتهد المصيب أجرين والمجتهد المخطئ أجرا..الخ إن الفهم الصحيح هو أن نميز بين الثابت والمتحرك، وأن نميز بين المحكم والمتشابه، فقد بين الإمام القرافي؛ أن سنة

رسول الله ﷺ تنقسم إلى أربعة أقسام هي: **الوحي ـ والفتيا ـ والقضاء ـ وتعامله كحاكم.**

فالوحي والفتيا أحكامهما ملزمة، وأما القضاء فإن القاضى يفصل في الأحكام على حسب ما يظهر له من بينات، وقد قال ﷺ: (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار)(١)؛ وأما تعامله كرئيس دولة؛ فإن الصحابة كانوا يراجعونه فيقبل رأيهم، ففي غزوة الخندق رأى أن يعطي ثلث ثمار المدينة لقبيلة غطفان لتخرج من التحالف الذى يقوده أهل مكة لغزو المدينة؛ ولكن الأنصار رفضوا ذلك، فاستجاب رسول الله لرغبتهم؛ الشاهد أن تعامله كقاضي يعتمد على البينات؛ فلا يجوز لأحد أن يقول إن رسول الله قد حكم في هذه القضية بكذا، وعليه فأنا أصدر نفس الحكم دون الرجوع إلى البينات والملابسات التي تحيط بكل واقعة. وأما تعامله كرئيس دولة فيصطلح عليه الفقهاء بفقه السياسة الشرعية؛ وهي متروكة لمراعاة المصلحة وتقديرات البشر وفق ظروف زمانهم. إن الخلط بين الثابت والمتحرك في الفقه الإسلامي؛ كان سببًا من أسبابالانحراف الفكري.

إن هذا التقسيم لأحكام الإسلام إلى ثوابت ومتغيرات؛ يؤكد أنّ الإسلام جاء بمنهج مرن يمتلك القدرة للتعامل مع كل المستجدات وفق المعايير والمقاصد المحققة للمصلحة الإنسانية عبر الزمان والمكان. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ

(١) أخرجه البخارى في صحيحه (٧١٦٩) في كتاب الأحكام مكتبة الإيمان

تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [براهيم: ٢٤ – ٢٥].

ثالثًا: دعا الإسلام لاستصحاب النافع من العطاء الإنساني بغض النظر عن مصدره، قال ﷺ: (الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق الناس بها)[١]. هذا النهج يجعل الإسلام متقبلاً لكل عمل صالح فكراً كان أو خلقًا أو تقنية؛ مما يؤهله لاتباع المعيار الموضوعي الذي ينظر إلى النتائج؛ فإذا كانت نافعة أخذ بها وإن كانت مضرة رفضها، واستناداً إلى ذلك نجد أن الإسلام منذ فجره لم يرفض كل القيم التي سبقته أو تلك التي عاصرته من انتاج السابقين والمعاصرين؛ بل أشاد ببعض رموز العصر الجاهلي وبعض قيمهم؛ أمثال حاتم الطائى، والحارث بن حلزة، وأكثم بن صيفي، وزهير بن أبي سلمى؛ وينسب إلى عنترة بن شداد أبيات من الشعر تشع نوراً، وعفة، وحكمة، ونبلاً؛ احتفى بها الإسلام وطرب لها المسلمون تلك الأبيات هي:

ما استمت[٢] أنثى نفسها في موطن حتى أوفي مهرها مولاها
وأغشى فتاة الحي عند حليلها وإذا غزا في الحرب لا أغشاها
وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها
إني امرؤ سمح الخليقة ماجد لاأتبع النفس اللجوج هواها[٣]

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجة
(٢) ما استمت : أي لم أراودها عن نفسها
(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى ص (٧٥٦) المصدر :
موقع الوراق :www.alwaraq.net

فالمخالف قد يكون ضال العقيدة، منحرف الفكر، معاديا للإسلام تعصباً؛ لكنه لا يخلو من الفضيلة في جانب من جوانب حياته، وكلام عنترة إن قيل دون سند لظن السامع أنه من كلام الصحابة رضي الله عنهم، قال ابن القيم: " إن الشريعة لا ترد حقا، ولا تكذب دليلا، ولا تبطل أمارة صحيحة، وقد أمر الله سبحانه بالتثبت والتبين في خبر الفاسق، ولم يأمر برده جملة. فإن الكافر الفاسق قد يقوم على خبره شواهد الصدق، فيجب قبوله والعمل به. وقد استأجر النبي ﷺ في سفر الهجرة دليلا مشركا على دين قومه، فأمنه ودفع إليه راحلته" (١). وقد شهد رسول الله ﷺ قبل البعثة حلف الفضول الذي أبرمته قريش لنصرة المظلوم وردع الظالم، وقال ﷺ عنه: (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يعد ظالم مظلوما)(٢) هذه الموضوعية جعلت الإسلام ينتشر في أوساط كثيرة بسلوك قادته ودعاته، فالإنصاف من أميز الصفات التي تجلب الإحترام؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨]

رابعًا: مراعاة الفطرة والاستجابة لمطالبها: الإسلام دين الفطرة، بنص الآية الكريمة: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠]

(١) ابن القيم : الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، ص (٢٤)
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية (ج ٢ / ص ٢٧٠)

والفطرة تعني مجموع الاستعدادات، والميول، والغرائز؛ التي تولد مع الإنسان، فبينما جاءت مفاهيم بعض العقائد مصادمة للفطرة، وأخرى منساقة لغرائزها، جاء الإسلام منسجما مع مطالب الفطرة، ومهذبا لغرائزها، وضابطا لميولها.

وجاءت تشريعات بعض الأديان منحازة للجوانب المادية، بينما نجد بعضها موغلة في الجانب الروحي، فابتدع أتباعها رهبانية ماكتبت عليهم، لقد جاء الإسلام موفقا بين كافة الثنائيات التي شغلت الفكر الإنساني ردحا من الزمان: الروح والمادة، والعقل والنقل، المثال والواقع، الدنيا والآخرة،..الخ ونجد في تعاليم الإسلام تشريعا لكل المواضيع التي تشكل أهمية في حياة الإنسان، وفق ضوابط تحدد لكل موضوع مجاله وحدوده، كما جاءت التشريعات الإسلامية مكملة لأحكام الرسالات السابقة ومصدقة لها ومعترفة بشرعيتها التاريخية.

إن المتعمق في الإسلام؛ يدرك بوضوح صلته الرحمية بالرسالات السابقة، ومراعاته للطبيعة البشرية المحاطة بعوامل الضعف، ودعوته للتأمل والتفكر والتدبر لمعرفة سنن الكون وتسخيرها لوظيفة الاستخلاف.

❍ مطالب الفطرة:

للإنسان مطالب فطرية؛ تحتاج إلى إشباع موزون قصرت كثير من العقائد عن إشباعها وضلت كثير من النحل عن الاهتداء إليها: " فطرة الإنسان توجب إشباع عشرة مطالب: روحية – معرفية – مادية – أخلاقية – عاطفية – إجتماعية

– بيئية – جمالية – رياضية – وترفيهية "[١] هذه المطالب يقرها الإسلام ويستجيب لإشباعها على النحو التالي:

١) **فالمطلب الروحي**: يشبعه الإيمان، والذكر، والمراقبة، والتوكل؛ قال الإمام المهدي عليه السلام: " وذوِّقنا يارب حلاوة الايمان بك، وصف سرائرنا حتى ندرك حلاوة القرآن"[٢] والرسول صلى الله عليه وآله وسلم بين في كثير من الأحاديث كيف أن الايمان يحقق طمأنينة نفسية، وسكينة روحية، ولذة وجدانية؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الايمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[٣] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩ ﴾ [الرعد: ٢٨ – ٢٩]

٢) **المطلب المعرفي**: يشبعه الإسلام بدعوته للأخذ بكل أسباب المعرفة؛ ويؤكد ذلك أن أول آيات القرآن نزولاً دعت للقراءة والتعلم قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ ﴾ [العلق: ١- ٥] وأقرّ الإسلام مصادر المعرفة الأربعة: الوحي، والإلهام، والعقل، والتجربة. والأدلة مبثوثة في الكتاب والسنة، والوقائع تؤكد ذلك؛ فقد احتفى المسلمون في عصورهم النبوية،

(١) الامام الصادق المهدى: نحوثورة ثقافية ص: (٦٨-٦٩)
(٢) راتب الامام المهدى الجزء الأول
(٣) رواه البخارى في كتاب الايمان (١٦)

والراشدية، والأموية، والعباسية، بالعلم والعلماء؛ وتشهد على ذلك دار الحكمة التي أنشأها المأمون وضمت أمهات المراجع من كل الحضارات، وعلماء من كل الديانات، ومعارف شملت كل العلوم المتاحة في ذلك العصر، والدعوة لاكتشاف أسرار الكون وسننه وقوانيه تغطي معظم سور القرآن الكريم مع الحثّ على التفكر والتدبر والتعقل والاعتبار؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

٣) **المطلب المادي**: اعترف به الإسلام وشرَع له بل اعتبره من النعم التي أنعم الله بها على عباده فاستوجب العبادة قال تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش: ٣-٤] وتساءل القرآن مستنكراً على أولئك الذين حرّموا الحاجات المادية رهبنة واسقاطاً لحاجات ضرورية متوهمين أنهم يتقربون إلى الله بحرمان أنفسهم من تلك الطيبات مبيناً أنها من نعم الله التي أباحها لعباده في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٢].

٤) **المطلب الخلقي**: له مكانة كبيرة في تعاليم الإسلام؛ بل بين الرسول ﷺ أنه ما بعث إلا لأجل ذلك، قال ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[1] لأن

(١) رواه أحمد المصدر البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٣٨)

الإنسان محتاج إلى مقياس خلقي يتعامل به، والقاعدة الأخلاقية تقول: أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك، وأن الصحيح من الأفعال هو ما ترضى أن يكون قانونـًا كليـًا يتعامل بموجبه الناس، فالإسلام أقرّ هذا المعنى وزاد عليه فالمعايير الخلقية المعروفة تتمثل في المعاملة بالمثل، والعفو؛ وزاد عليها الإسلام الإيثار كأعلى درجات التعامل الخلقي قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر: ٩].

٥) **الجانب العاطفي**: أشبعه الإسلام بالعلاقات الإنسانية القائمة على المحبة: علاقة الأبوة والأمومة، والبنوة، والعلاقات الزوجية، التي تظللها السكينة، والمودة، والرحمة، وعلاقات الأخوة والصداقة؛ بل في الاطار الإنساني العام دعا الإسلام المسلمين أن يرتقوا بعلاقاتهم الإنسانية من مجال الحقوق والواجبات؛ إلى درجة المحبة؛ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَلا أدلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)(١) بل إن الرسول ﷺ قرع الذي تجرد من العواطف؛ لأنه استغرب عندما رأى رسول الله يقبل الأطفال عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: أتقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم فقال النبي ﷺ: (أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة)(٢). إن العطف والحنان

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الايمان (٢٨/ ٩٣/ ٥٤)
(٢) رواه البخارى في صحيحه في كتاب الأدب (٢٠١٣)

والحب والإيمان كلها وجدانيات من حرمها فقد حرم الإنسانية.

٦) **الجانب الإجتماعي**: أولاه الإسلام أهمية كبرى؛ فحتى العبادة التي تؤدي في جماعة فإنها تفضل على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، لقد وضع الإسلام تشريعات تحكم العلاقات الإجتماعية للمحافظة عليها وتطويرها، لأن الإنسان لا يستغني عنها ولن يستطيع العيش بدونها؛ بل إن التفريط فيها ربما استغرق كل حسنات العبادات وجرّ المفرط إلى نار جهنم كما ورد في حديث المفلس الذي استنفد كل أجور أعماله في تسديد حقوق الناس الذين أساء معاملتهم، ولما بقيت عليه مطالب أُخِذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم سحب إلى نار جهنم(١). وقد نهى الإسلام عن كل ما من شأنه أن يكدر العلاقات الإجتماعية؛ عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: (لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام)(٢) والبر في الإسلام لا يكون بالشكليات والمظاهر وإنما بتقديم النفع العام وبذل الخير لضعفاء المجتمع؛ قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٧) **الجانب البيئي**: عرِّفت البيئة عدة تعريفات منها: " أنها مجموع الظروف

(١) نص الحديث ورد في صحيح مسلم رقم الحديث (٢٥٧٧)
(٢) رواه البخارى في كتاب الأدب (٢٠٣٨)

والعوامل الخارجية التي تعيش فيها الكائنات الحية وتؤثر في العمليات الحيوية التي تقوم بها. وللإنسان ـ كأحد كائنات النظام البيئي ـ مكانة خاصة نظراً لتطوره الفكري والإجتماعي فهو المسيطر ـ إلى حد ملموس ـ على النظام البيئي وعلى حسن تصرفه تتوقف المحافظة على النظام البيئي وعدم استنزافه "[1].

الإسلام باعتباره ديناً خاتماً للديانات جاءت تعاليمه شاملة لكل أوجه الحياة؛ منظمة لعلاقة الإنسان بخالقه، وعلاقته مع بني جنسه، وعلاقته بالكون الذي يعيش فيه؛ بكل موجوداته الحيوانية والنباتية والجمادية، وما عداها من هواء وغازات، ومياه، في الأرض والبحر والجو والسماء.. قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٥٨-٧٤] لقد تناول القرآن العناصر المكونة للبيئة في عدة آيات، كما تحدث عن دور الإنسان فيها سلباً وإيجاباً؛ وجاءت تعاليم الإسلام في القرآن والسنة موجهة للإنسان ومبينة له ما يجب عليه للحفاظ على مكونات البيئة الصالحة التي أنعم الله بها عليه وذلك على النحو التالي:

---

(١) إدارة التنمية د فضل الله على فضل الله

(أ): اعتبار هذه العناصر من نعم الله على عباده.. قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]. والقرآن حين يقول: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية: ١٧] فبذكر الإبل دون غيرها من الحيوانات؛ إنما يشير إلى الاهتمام بهذا الحيوان العجيب والتأمل في تكوينه وتركيبه وخواصه ومنافعه، بوصفه أقرب الأنعام إلى العرب المخاطبين قبل غيرهم بالقرآن.

وحديث القرآن المتكرر عن الأنعام (الإبل والبقر والغنم) دون غيرها من الحيوانات التي قد توجد في بلدان أخرى، إنما يريد أن ينبه المخاطبين إلى العناصر الحيوانية في البيئة لينتفعوا بها ويشكروا نعمة الله فيها فيأكلوا من لحمها ويشربوا من لبنها: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النحل: ٦٦] وينعموا بمنظرها غادية ورائحة: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل: ٦] ومثل ذلك حديثه عن النحل وبيوته، وأنواعه، ومنافعه الغذائية والدوائية في سورة تحمل اسمه.. وكذلك قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل: ٨٠]

وكذلك الحديث عن النخيل والأعناب والزرع: المختلف أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه وفيه ينبه القرآن إلى أمرين هامين هما:

١ ـ الإستمتاع بالعنصر الجمالي فيها: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا

بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

٢ ـ الإنتفاع بالعنصر المادي فيها، مع أداء حق الله: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

(ب): دعوة الإنسان للتفكر في هذه العناصر لاكتشاف قوانينها ونظمها والاستفادة منها.. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]

والأرض التي يعيش عليها الإنسان فيها ظواهر مطلوب منا النظر فيها بعين الإعتبار قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٣-٤].

(ج): اعتبار البيئة عاملاً مؤثراً في تشكيل عقلية الإنسان وثقافته.. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو

ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟)[١] واختلاف الأحكام الفقهية في كثير من القضايا المتشابهة سببه: اختلاف أحوال المخاطبين وبلدانهم وأزمانهم، ووضعت قاعدة فقهية تقول: "تختلف الفتوى حسب اختلاف الزمان والمكان والحال " فالإنسان البدوي تختلف ثقافته عن ثقافة الحضري والذي يعيش في الصحراء يختلف عن الذي يعيش في الغابة حيث الأشجار والمياه والطيور، قال تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ [التوبة: ٩٩] وقال تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزخرف: ١٨].

(د): الإعتناء بالبيئة والمحافظة عليها بكل عناصرها:

١) النهي عن قطع الأشجار دون حاجة ضرورية: روى أبو داود في سننه أنه ﷺ قال: (من قطع سدرة صوّب الله رأسه في النار) والمراد بالسدرة شجر السدر المعروف وهو ينبت في الصحاري ويصبر على العطش ويقاوم الحر وينتفع الناس بظلاله والأكل من ثماره، والوعيد بالنار لمن قطع سدرة يدل على تأكيد المحافظة على مقومات البيئة الطبيعية، لما توفره من حفظ التوازن بين المخلوقات وسُئل أبو داود راوي الحديث عن المقصود بهذا الحديث فقال: "هذا الحديث مختصر يعني من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثًا وظلمًا بغير حق يكون له فيها ، صوّب الله رأسه في النار " وكان

(١) رواه مسلم في كتاب القدر(١٣٦٠/ ٢٢/ ٢٦٥٨)

خلفاء المسلمين يوصون الجيوش الغازية بألا يقطعوا شجرة مثمرة..

٢) الاعتناء بالتشجير: عن أنس بن مالك ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة) متفق عليه.

وروى أحمد عن أبي الدرداء ﷺ: أنّ رجلاً مرّ به وهو يغرس غرساً بدمشق فقال له: أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ﷺ قال: لا تعجل علي؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من غرس غرساً لم يأكل منه آدمي ولا خلق من خلق الله إلا كان له به صدقة).

٣) الاعتناء بالثروة الحيوانية: روى أحمد والنسائي والدارمي والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا يسأله الله عنها، قيل يا رسول الله وما حقها ! قال: " أن يذبحها فيأكلها ولا يقطع رأسها ويرمي بها".

وروى أحمد والنسائي أيضاً وابن حبان من حديث الشريد رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من قتل عصفوراً عبثاً، عجّ إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب إنّ فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة) يفهم من هذين الحديثين الإعتناء بالحيوان واحترامه والحرص على حياته باعتباره من مكونات البيئة ومنع العبث به وتعريضه للفناء والإنقراض..

٤) المحافظة على الأجناس الحية من الإنقراض: قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٨] وهذا معناه أن هذه المخلوقات وجدت

لحكمة فلا يجوز الإعتداء عليها لأنها عامل أساسي في التوازن البيئي ـ روى أبو داود والترمذي والنسائي أنّ رسول الله ﷺ قال: (لولا أنّ الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم) قال الإمام أبو سليمان عن شرح الحديث في كتابه: "معالم السنن" معناه: " أنه كره إفناء أمة من الأمم وإعدام جيل من الخلق حتى يأتي عليه كله فلا يبقى منه باقية لأنه ما من خلق لله تعالى إلا وفيه نوع من الحكمة وضرب من المصلحة، يقول: إذا كان الأمر على هذا ولا سبيل إلى قتلهن كلهن فاقتلوا شرارهن وهي السود البهم وابقوا ما سواها لتنتفعوا بها في الحراسة "..

(هـ): النهي عن تلوث البيئة: أمر الإسلام بالنظافة: نظافة البدن ونظافة الثياب ونظافة المكان، وجعل الطهارة شرطاً لصحة بعض العبادات كما نهى عن تلويث الأماكن التي يرتادها الناس لقضاء مصالحهم وحذّر من الملاعن الثلاث: الظل ، ومورد الماء ، وقارعة الطريق ، روى الطبراني عن حذيفة بن أسيد أن رسول الله ﷺ قال: (من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم)..

(و): زيادة السكان: تطرح مجموعة من المشاكل أهمها مشكلة الإسكان والغذاء والتعليم والصحة والعمل وقد عقدت مؤتمرات عديدة عن ظاهرة المشكلة السكانية وآثارها ولا شك أن زيادة السكان لها آثار على البيئة بسبب قلة الموارد وانتشار الأمراض مما يحدث خللاً في نظام الكون وصحيح هنالك أحاديث استحسنت كثرة الأولاد ولكنها زيادة مشروطة بالتربية الصحيحة والإعاشة السليمة روي عن علي بن أبي طالب أنه قال: " قلة العيال أحد اليسارين وكثرة العيال أحد الفقرين " إن مفهوم البيئة يطلق على ما يحيط

بالإنسان مكانـًا وزمانـًا وأشياءً وأشخاصـًا وأحوالاً، وهذه البيئة لها أثر كبير على الإنسان سلبـًا وإيجابـًا، ولذلك اهتم الإسلام بالبيئة المادية والمعنوية بصيانتها والمحافظة عليها وتهيئتها ليتمكن الإنسان من إشباع حاجته البيئية فيعيش سليما معافي(١).

٨) **المطلب الجمالي**: الجمال في الكون مطلوب كالكمال، وقال ﷺ "إن الله جميل يحب الجمال"(٢) لقد أعطى الإسلام اهتماما كبيرا للبعد الجمالى في جميع مجالاته؛ فالكون نفسه يقوم على نسق جمالى غاية في الروعة والإبداع قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤ ﴾ [الملك: ٣-٤] والقرآن كتاب الإسلام المقدس جاء غاية في الجمال؛ لفظـًا، وتركيبـًا، وتنسيقـًا، ومعنىً؛ واقرأ إن شئت هذه اللوحة القرآنية: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِى وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِىَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤ ﴾ [هود: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ۝٥ ﴾ [العاديات: ١-٥].

---

(١) هذه الفقرة منقولة من محاضرة قدمها الكاتب في دار الجمعية السودانية لحماية البيئة بعنوان الإسلام والبيئة بتاريخ : ٢٦ ابريل ٢٠٠٤م وراجع أيضا السنة النبوية مصدراً للمعرفة والحضارة _ د. يوسف القرضاوي. وإدارة التنمية _ د. فضل الله علي فضل الله. و الإسلام في عصر العلم _ محمد أحمد الغمراوي.

(٢) حديث صحيح أخرجه مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، والحاكم في مستدركه ، وغيرهم.

٩) **المطلب الرياضي**: جسم الإنسان " محتاج للماء والهواء والغذاء، ولإشباع كافة الغرائز لحفظ الحياة هذه الأمور عالقة بالرياضة، ولكن الرياضة في حقيقتها نشاط ضروري لحياة الإنسان إنها:

- ضرورة صحية لتمرين العضلات وأعضاء الجسم.

- ضرورة علاجية لعلاج كثير من الأمراض.

- ضرورة نفسية لإشباع حب المنافسة، ولتنفيس حالات الغضب والحزن ولكسر حالات الملل.

- والرياضة ضمن عوامل أخرى تبطئ سرعة الشيخوخة.

- والرياضة ضرورة تربوية بما تحقق من تنظيم التنافس، والتعاون من أجل هدف مشترك.

- والرياضة تثري الحياة الاجتماعية.

- والرياضة نشاط جمالي فيه ممارسات فنية وفيه تجميل طبيعي للاجسام"(١).

فالرياضة إذاً ليست لعبـًا؛ وإنما هي مطلب ضروري من مطالب الإنسان، والإسلام دين الفطرة يلبي كل المطالب الفطرية للإنسان، والدعوة للسعي في الأرض والمشي في مناكبها فيها إشباع للجانب الرياضي للإنسان؛ إضافة للمقصد المعلن فالعبادات الحركية قربى روحية لله وفي نفس الوقت فيها تنشيط

(١) الامام الصادق المهدى نحو ثورة ثقافية صفحة (٥٧-٥٨)مكتبة الشروق الدولية الطبعة الأولى ٢٠٠٦ القاهرة

لعضلات الجسم، والقول الجامع في هذا المعنى: أن كل ما يحقق مصلحة لجسم الإنسان فقد أباحه الإسلام، وكل ما يحقق الضرر فقد حرمه الإسلام، ومعلوم أن الرياضة يحتاجها الجسم لتقوية العضلات، ولتخفيف الوزن، ولإزالة الدهون التي تؤثر على نشاط الشرايين؛ فضلاً عن الفوائد الذهنية، والعقلية، والنفسية التي تتحقق للإنسان، وأن إهمال الرياضة ضرَره واضح في إحداث نقيض ما ذكرنا، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى الهلاك الذي نهى عنه الشرع قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء: ٢٩]

١٠) **المطلب الترفيهي**: إن مشاكل الحياة المتعددة والمعقدة تفرض على الإنسان ضغوطًا نفسية تقلق مضجعه؛ فالترفيه أحد وسائل الترويح عن النفس ولذلك فهو مباح في الإسلام ومطلوب. عن عائشة رضي الله عنها أن زَفَّت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال النبي ﷺ: (يا عائشة ما كان معكم لهو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو)(١) والإسلام لم يفرض على الإنسان أن يلتزم بالعبادة طول الوقت؛ وإنما هنالك أوقات للعبادة، وأوقات لطلب الرزق، وأوقات للراحة، وأوقات للترفيه عن النفس، ولذلك تتخلل حياة المسلم الأعياد والمناسبات السعيدة حتى لا يقتله الملل؛ عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: دخلت علينا جارية لحسان بن ثابت – يوم فطر – ناشرة شعرها معها دف تغني فزجرتها فقال النبي ﷺ: (دعيها يا أم سلمة فإن لكل قوم عيد وهذا عيدنا)(٢) وإذا نظرنا للكون

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ج (٥) ص: ١٩٨٠ ط دارابن كثير

(٢) ذكره الهيثمى في مجمع الزوائد المصدر البيان لمايشغل الأذهان مجموعة فتاوى للدكتور =

وجدناه قد سُخِّرَ للإنسان ليستفيد من خيراته، ويتفكر في مكوناته المتنوعة؛ ليشبع كافة جوانب مكونات جسمه وروحه؛ يقول الدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية السابق: " لا شئ في الغناء إلا أنه من طيبات الدنيا التي تستلذها الأنفس، وتستطيبها العقول، وتستحسنها الفطر، وتشتهيها الأسماع، فهو لذة الأذن كما أن الطعام الهنيء لذة المعدة، والمنظر الجميل لذة العين، والرائحة الذكية لذة الشم، والإسلام دين الجمال، ودين الطمأنينة، ولم يبق في الإسلام شيء طيب - أي تستطيبه الأنفس والعقول السليمة-؛ إلا أحله الله، رحمة بهذه الأمة لعموم رسالتها وخلودها. قال سبحانه تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ [المائدة: ٤] ولم يبح الله لواحد من الناس أن يحرم على نفسه أو على غيره شيئًا من الطيبات مما رزق الله، مهما يكون صلاح نيته أو ابتغاء وجه الله فيه، فإن التحليل والتحريم من سلطة الله وحده، وليس من شأن عباده"(١). قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يونس: ٥٩] قال ابن حزم: إن رسول الله ﷺ قال: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) فمن نوى استماع الغناء عونًا على معصية الله تعالى؛ فهو فاسق، وكذلك كل شئ غير الغناء، ومن نوى به ترويح نفسه ليقوى بذلك على طاعة الله عز وجل، وينشط نفسه بذلك على البر؛ فهو مطيع محسن وفعله هذا من الحق! ومن لم ينو طاعة ولا معصية؛ فهو لغو معفو عنه، كخروج الإنسان إلى بستانه متنزهًا، وقعوده

=

على جمعة مفتى الديارالمصرية المقطم للنشر والتوزيع طبعة ٢٠٠٥م

(١) البيان لما يشغل الأذهان أ. د. علي جمعة صفحة (٣٥٢)

على باب داره متفرجا "[١] وهذا عين الصواب؛ لأن الفهم الواسع للدين يحتاج لذوي العقول النيره، والإدراك العميق، والنظر المستبصر. قال الامام الصادق المهدي: " إن الطبيعة هي كتاب الله، المشاهد ومناظرها في الشجر والنهر والبر والبحر لوحات جمالية، والطيورالمغردة والحيوانات تصدر أصواتاً هي التي تحاكيها آلات الموسيقى وأنغامها"[٢]. وقال الإمام الغزالي: " من لم يحركه العود وأوتاره، والربيع وأزهاره، فهو فاسد المزاج ليس له علاج " وقال: " من لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الإعتدال، بعيد عن الروحانية، زائد في غِلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور، بل على جميع البهائم، فإنها جميعاً تتأثر بالأنغام الموزونة "[٣].

خامساً: بسط قيم التسامح: إن أخطر ما أصاب البشرية هو نهج التعصب الديني الذي ينفي الآخر ويسعى لاستئصاله من الوجود؛ والإنسانية في كل يوم تزداد وعياً بخطر التعصب وتتطلع إلى نهج يجعل التسامح يحل محل التصادم.

إنني أقول: جازما غير مرتاب؛ إنّ الحل في الإسلام. فقد نهى الإسلام عن الإكراه في الدين وترك الناس أحراراً ليختاروا الدين الذي يريدون. قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ولا يجوز لأحد أن

(١) المحلى لابن حزم ج ٧ ص ٥٦٧ صفحة (٣٥٥)

(٢) الامام الصادق المهدى نحو ثورة ثقافية ص (٣٧)

(٣) الامام أبو حامد الغزالى : إحياء علوم الدين الجزء الثانى كتاب آداب السماع والوجد الكتاب الثامن من ربع العادات ص ٢٧٥ – المكتبة التجارية الكبرى – مصر

يحمل الناس قسراً على دين لا يريدونه؛ لأن مبدأ الحساب العادل يقوم على الحرية، والرسول ﷺ - أفضل خلق الله- لم يعطه الله حق الإكراه! فمن باب أولى ألا يعطيه لأحد غيره؛ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس: ٩٩] ومهمته ﷺ فقط تنحصر في البلاغ: قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ.. ﴾ [الكهف: ٢٩] ونهى الإسلام عن الإساءة لأصحاب المعتقدات المخالفة؛ بل دعا للبر بهم والتواصل معهم قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨] والإسلام لا يطلب من أهل الكتاب التخلي عن دينهم؛ بل يأمرهم بالإلتزام به، فعندما حمل الصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة رسالة رسول الله ﷺ إلى (المقوقس) عظيم القبط بمصر ودار بينهما حوار، بدأه حاطب، قال للمقوقس: (إن لك دينًا لن تدعه إلا لمن هو خير منه، وهو الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل.. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به)[1] هذه النظرة التي ينظرها الإسلام لأهل الكتاب جعلته يطلب من المسلمين أن يعاملوا أهل الكتاب معاملة حسنة ويجادلوهم بالتي هي أحسن: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص (٤٦) طبعة ليدن ١٩٢٠م نقلاً عن : هذا هو الإسلام ، لمحمد عمارة

وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ [العنكبوت: ٤٦]

إن التمييز الطبقي، والتفاضل العرقي، واسترقاق الإنسان لأخيه الإنسان؛ كانت من المفاهيم السائدة في العلاقات الإنسانية في الحقبة التي سبقت مجئ الإسلام، وتعاليم الإسلام جاءت لتلغي لتلك الممارسات الظالمة، وفي هذا العصر تجددت الدعوة إلى (إحياء كل ما هو انساني) في عالمنا هذا، وإلى إقامة العلاقات على أساسه وفي ضوئه. لأن هنالك وعياً عالمياً بالقرية الكونية التي سيتأثر أي ركن فيها بما يحدث في أي جزء من أجزائها؛ مما يتطلب تعاوناً بين عمارها للمحافظة عليها أولاً: من الممارسات السيئة المضرة: مثل تلوث البيئة، وانتشار المخدرات، ونقل الأمراض الفتاكة، والهجرة غير الشرعية، وغيرها من أمراض العصر التي سماها الإمام الصادق المهدى بأسلحة الضرار الشامل، وثانياً: للتعاون الإيجابي بين شعوبها لتحقيق الوحدة الإنسانية في ظل التنوع. لقد جاءت الدعوة الإسلامية واضحة لمنع الضرر، في أكثر من موضع: فخليفة المسلمين أبو بكر الصديق يوصي يزيد بن أبي سفيان عندما بعثه على رأس جيش للشام قائلاً: (.. وإني أوصيك بعشر: لا تقتلن امرأة؛ ولا صبياً؛ ولا كبيراً هرماً؛ ولا تقطعن شجراً مثمراً؛ ولا تخربن عامراً؛ ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة؛ ولا تحرقن نخلاً؛ ولا تفرقنه؛ ولا تغلل؛ ولا تجبن..)[1] والسنة النبوية دعت إلى منع من يسعى للضرر؛ بل أكدت أن الناس إذا لم يمنعوا المفسدين فسوف تحل الكارثة عليهم جميعاً كما وضح ذلك حديث السفينة؛ قال ﷺ: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها؛ كمثل قوم استهموا على

(١) رواه مالك في الموطأ

سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا)[1] إن الإلتزام بهذه التوجيهات يحقق الإصلاح في الأرض ويمنع الفساد، ويحقق المحافظة على البيئة - الملك المشترك للعنصر البشري - قال تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦] فالتواصل الإنساني دينيًا وثقافيًا وحضاريًا تبادلاً للمصالح والمعارف؛ أمراً بديهيًا في الإسلام، ولم يكن من القضايا التي يحتار فيها المسلمون في السابق، لأنهم كانوا معافين من العلل المُقْعِدَة التي لحقت بالخلف، فقد عاشوا مع رسول الله ﷺ وخلفائه روح الإسلام؛ فرأوا كيف أنهم تسامحوا حتى مع الذين سعوا لاستئصالهم فعفوا عنهم عند المقدرة، وتجاوزوا عنهم عند التمكن! فرفدوا الإنسانية لأول مرة بمنظومة قيم لا تعرف الثأر ولا الإنتقام؛ بل إنهم أقروا للذين آذوهم بالأخوة، فعندما فتح رسول الله ﷺ مكة منتصراً وتمكن من خصومه قال لهم: (يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل

(١) رواه البخارى في صحيحه في كتاب الشركة ص (٥١٦) مكتبة الإيمان القاهرة طبعة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

بكم؟. قالوا: خيراً؛ أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء)[١]!!

سادسـًا: صيانة كرامة الإنسان: دعا الإسلام إلى التفكر والتدبر في أكثر من آية، وكثير من أحكام الإسلام تقوم على العلل، هنالك عقائد وضعية تعاملت مع الإنسان على أساس أنه نجس لا قيمة له، وانتقصت من قدره، ورأت أنه لا يسمو إلا إذا عذب جسده وأهان نفسه. وهنالك عقائد غالت في تعاملها مع الإنسان حيث وضعته في مرتبة الألوهية. وكلا العقيدتين فاسدة ولكن الإسلام جاء بفهم وسط لم يستصغر الإنسان ولم يؤلهه، وإنما جعله مخلوقـًا مكرمـًا لمجرد إنسانيته كما اتضح سابقـًا. والإسلام جاء ليكرّم هذا الإنسان لأنه سيد المخلوقات؛ ولو أراد الله لهذا الكون انسجامـًا قائمـًا على القهر انسجامـًا غريزيـًا؛ لاكتفي بالخلق الأول. فلا يملك أحد أن يتدخل في إرادة الله ويقول: إنه يريد أن يجبر الناس جبرا ليكونوا كالملائكة. لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق الناس هكذا؛ أحراراً يملكون الإرادة، وبين لهم طرق الخير وطرق الشر، فمن أراد أن يتبع الهدى فهو حرٌ ومن أراد أن يتبع الضلال فهو حر: ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦۖ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴾ [الاسراء: ٨٤] إن إجبار الناس لكى يسيروا على نهج واحد لم يعطه الله حتى لرسوله الأعظم ﷺ قال له سبحانه وتعالى: ﴿ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴾ [الغاشية: ١٨] وقال: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس: ٩٩] وقال: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ [الشورى: ٤٨] فمهمة رسول الله ﷺ محددة بتبليغ ما أُمِربه؛ فقد بُعث نبيـًا

(١) تاريخ الرسل والملوك للطبرى ص (٥٥٥) موقع:www.alwaraq.net

وهاديـاًومبشراً ونذيراً ولم يبعث قاضيـاً. وعندما استشار أصحابه في غزوة أحد كان رأي الغالبية من أصحابه أن يخرج بالناس إلى خارج المدينة، فنزل عند رأي الأغلبية وامتثل لهم وخرج. وفي تلك المعركة هُزِم المسلمون لمخالفة الرماة أمر الرسول وسقط رسول الله ﷺ في الحفرة، وكُسِرَت سِنُّه، ودخلت حلقة من الدرع في وجنته، وجُرِح في ساقه، فنزل علي بن أبي طالب وأخرجه من الحفرة بمساعدة آخرين؛ ففي هذه الأثناء ودمه ينزف؛ نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٧] فكأنه سبحانه وتعالى يقول له: إياك أن تُلغي الشورى لأنها أتت بنتيجة عكسية! فمهما كانت النتائج فإنّ رأي الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف، ورأي الفرد يشقيها. والإسلام جاء بالرحمة ولكننا نرى الآن دعاة أتوا بالعذاب ويريدون أن يقولون لنا هذا هو الإسلام !!

جاء رجل مصري قبطي ومعه ابنه الى الخليفة عمر بن الخطاب وقال له: إن ولد عمرو بن العاص ضرب ابني ظلمـاً، فأرسل عمر إلى ابن العاص وأمره أن يأتي مسرعـاً إلى المدينة هو وولده من الديار المصرية؛ فلما جاء أعطى ابن الخطاب الغلام المصري سوطا وقال له اضرب به ابن الأكرمين! فلما أخذ حقه، قال له لوضربت هذا مامنعتك ـ يعني عمرو بن العاص ـ فلولاه لما تجرأ ابنه ! فقال المصري أنا لاأضرب إلا من ضربني. فقال عمر عندها مقولته المشهورة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"[١] بهذا تكون

(١) الولاية على البلدان في عصر الراشدين، عبد العزيز بن إبراهيم العمري

هيبة الدولة بإقامة العدل ومنع الظلم.

هذا هو الإسلام؛ قيم ومبادئ، وانشراح صدر المؤمنين للحكام، فمهما استدل المتحدث بالنصوص لتبرير تصرفاته الخاطئة فإن الناس إن لم يطمئنوا لما يفعل فعليه بالمراجعة. قال ﷺ فيما رواه الإمام أحمد: " إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به. وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه "(١).

ورب العزة يقول: (إني والإنس والجن في نبأ عظيم؛ أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكرسواي، خيري الى العباد نازل وشرهم إلي صاعد، أتحبب اليهم بنعمتي وأنا الغني عنهم، ويبتغضون عني بالمعاصي وهم أفقر شئ إلي، من أقبل لقيته من قريب، ومن أعرض ناديته من بعيد، أهل ذكري أهل عبادتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل طاعتي أهل محبتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا إلي فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، ابتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعاصي، الحسنة عندي بعشر أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبادي من الأم بولدها)(٢).

إن الذين يتشددون في الدين، ويضيقون على الناس، ويتبعون أسلوب التنفير؛ هم في الواقع قطاع طرق بين الناس وربهم.

---

(١) رواه الامام أحمد في مسنده: موسوعة الحديث

(٢) الأحاديث القدسية

إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦ ﴾ [المائدة: ٦] وهو القائل: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. والله سبحانه وتعالى أرحم بنا من أمهاتنا هل الذين يريدون أن يسوقونا قسراً إلى مفاهيمهم اليوم أرحم بنا من أمهاتنا؟!! أبداً.. والإسلام من تكريمه للإنسان حرم عليك أن تهمزه أو تغمزه أو تسوء به الظن قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ ﴾ [الحجرات: ١٢]. وقال ﷺ: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث...)(١). وكان ولاة الأمر وقّافون على الحق مهما كان مقام الناصح لأنهم قرأوا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦ ﴾ [البقرة: ٢٠٦]. فتواضعوا لله وامتثلوا أوامره فوفقهم الله وسدد خطاهم.

سادسا: مرتكزات المنهج الوسطي: إنّ النهج الوسطي للإسلام هو المؤهل للإنتصار للإسلام لما يتميز به من خطاب موضوعي، وأسلوب واقعي، ونظرة شاملة لكل نواحي الحياة الإنسانية؛ وإضافة إلى ما تقدم فإنّ النهج الوسطي هو نهج الإحياء الإسلامي الواعد ويقوم على المرتكزات الآتية:

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والآداب (١٣٠٨/ ٢٨/ ٢٥٦٣) مختصر صحيح مسلم

(أ) توحيد أهل القبلة..

أهل القبلة هم كل من نطق بالشهادتين، وآمن بالبعث وأقر بتعاليم الإسلام على الجملة. عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "مَن صَلَّى صَلاتَنَا واسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وأكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فذلك المسلم الذي له ذِمَّةُ الله وذِمَّةُ رَسُولِه، فَلاَ تَخْفِرُوا الله في ذِمَّتِه"(١). فالناس تتفاوت درجاتهم والتزاماتهم، المطلوب هو الإلتزام بالأصول ولا يضير اختلاف الإجتهادات في الفروع ما دامت كلها تصب في مصلحة الإسلام والمسلمين.

إن الاختلافات الفكرية والمذهبية والسياسية ضرورة؛ لأن الحقيقة الكاملة لا يملكها إلا الله سبحانه وتعالى وقد وزعها على عباده بنسب متفاوتة ليتكاملوا حتى وهم يتصارعون.. فالاختلاف نفسه ليس عيباً، وإنما العيب هو أن يتحول الاختلاف بين المسلمين إلى تعصب، واتهام المخالف بالكفر والزندقة لمجرد المخالفة في الرأي. الإختلاف بين المسلمين في الفروع هو اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد، وللاختلاف أسباب موضوعية ذكرتها سابقاً. إضافة لتلك الأسباب هناك أسباب أخرى ساهمت في تعدد المدارس الفكرية والمذهبية في ديار الإسلام. إن التعدد في الكون أمر واقع، وضرورة اجتماعية، و في عهد الرسول ﷺ تعددت أراء أصحابه فأقرهم عليها والوحي ينزل. فالإختلاف ضرورة لاستيعاب الإجتهادات وتنوعها في كل جزئية من الجزئيات.. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ ﴾ [يونس:

(١) رواه البخاري

١١٨-١١٩] وتوحيد أهل القبلة لا يعني أن يكون فهم الناس متطابقاً في كل صغيرة وكبيرة وإنما يعني اتفاقهم على الآتي:

الثوابت.

الكليات.

الإلتزام بقطعيات الشريعة.

عدم التكفير للمخالفين في الرأي.

نصرة المظلوم.

التسامح بين الجماعات المختلفة.

عدم فرض الرأي بالقوة.

الاجتهاد المؤسسي.

الاتفاق على معالم الدولة الإسلامية.

الاتفاق على أسس الخطاب الإسلامي للآخر.

منهج التعامل مع التراث.

منهج التعامل مع المستجدات.

إن توحيد أهل القبلة إذا تحقق فسوف يجنب المسلمين كثيراً من المشاكل التي جرّها عليهم التعصب وقصر النظر؛ وسوف يتهيأ المناخ للإنطلاقة الإسلامية الكبرى بوعي وإدراك إن شاء الله.

(ب) مرجعية التشريع..

الملزم من التشريع الإسلامي هو ما كان قطعي الورود وقطعي الدلالة.. فالقرآن كله قطعي الورود وبعض آياته قطعية الدلالة، أي أنه كله موحى به من عند الله؛ كلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، ومعظم آيات الأحكام محكمات؛ هنّ أمّ الكتاب وبه نصوص متشابهة تحتمل أكثر من معنى. والسنة ما كان منها وارداً عن طريق التواتر وثبتت صحة نسبته إلى رسول الله ﷺ فهو قطعي الورود، وما لم تصح نسبته إلى رسول الله يقاس على القرآن ـ والسيرة النبوية تُعتبر ترجمة واقعية وتجسيداً عملياً لتعاليم الإسلام. إنّ القرآن الكريم والحديث الصحيح والسيرة الثابتة؛ كلها مصادر للتشريع ملزمة بالمنهجية المبينة سابقا، أمّا التفاسير، والإجتهادات الفقهية، والآراء الفكرية التي قال بها العلماء؛ فهي للإستنارة، والإستفادة من المنهجية، والإسترشاد.. فما كان منها أقرب إلى قطعيات الإسلام ومقاصده، ويتلاءم مع ظروف عصرنا؛ أخذنا به. وما كان مرتبطاً بزمن محدّد، وأملته ظروف معينة، ولا يحقق المقصد الإسلامي المطلوب في عصرنا؛ تركناه.

وقد وضع الإمام المهدي قاعدة ذهبية في هذا المعنى تقول: " لكل وقت ومقام حال ولكل زمان وأوان رجال ".

(ج) التعامل مع غير المسلمين..

إن غير المسلمين أخوتنا في الإنسانية؛ وسبق البيان أن الإسلام كرم الإنسان لمجرد انسانيته؛ وعليه فإن نهج التعامل معهم يقوم على الآتي:

ـ التعاون معهم في كل القضايا الإنسانية؛ مثل إزالة آثار الكوارث الطبيعية،

والمجاعات، والمحافظة على البيئة، والتعاون الدولي لحفظ السلام والأمن، وتبادل المنافع معهم، والإستفادة من خبراتهم وتجاربهم، والسند في ذلك هو قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨]

ـ معاملتهم بالحسنى وعدم الإساءة إلى معتقداتهم مع الإقرار بانحرافها؛ فقد أمرَ الإسلام أن يُجادَلوا بالتي هي أحسن؛ بل نهى عن سبّ آلهة الوثنين.. فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]

ـ اتخاذ أسلوب الحوار معهم: فالحوار يهدف لإعلاء المشتركات من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه يبين حجتنا؛ فنحن نعتقد أنّ ذكر رسول الله قد ورد في كتبهم، وبشّر به أنبياؤهم. وكتابنا نصّه موحد ومتفق عليه من جميع المسلمين، ولا يوجد تناقض بين تعاليمه وبين الحقائق العلمية والمعارف الإنسانية التي توصّل إليها الإنسان، ورسولنا أوراقه الثبوتية معروفة: فأسرته من جهة الأب والأم معروفة، وتاريخ ميلاده ومكانه معروفان، وحاضنته ومرضعته معروفتان، ومعلوم أين تربّى وأين توفي، وأين دفن. إن سيرة رسولنا ﷺ كلها مدوّنة، ومحققة، ولا يوجد تناقض بين المسلمين حول سيرته؛ فهذه الحجج الدامغة، والمفاهيم الواضحة؛ تعطينا أقوى سند مقابل أطروحات الآخرين.. فالحوار هو أفضل أسلوب للتعامل مع غير المسلمين، ولنشر الإسلام بصفة عامة.

ـ التعايش والتواصل معهم اجتماعيـًا، والتنافس سلميـًا..

إنّ الإسلام هو دين التسامح والإعتدال، ومفاهيمه تعتمد على الحجة ومخاطبة العقول؛ عليه فإن أسلوب التعايش مع غير المسلمين، والتنافس هو الأجدى والأنفع للإسلام وللمسلمين؛ حيث تظهر حجته، ويبرز منطقه أمام حجج الآخرين ومنطقهم. والمسلمون يستطيعون في ظل التعايش السلمي أن يتحاوروا مع غيرهم ويستفيدوا من مناخ التسامح وكفالة الحريات أن ينشروا دعوتهم. ولا أرى مبررا لحرمان غير المسلمين من نشر دعوتهم، فالحرية لاتتجزأ، ولنترك للناس أن يختاروا، وعلينا أن نحسن عرضنا لديننا، ونلتزم بأحكامه فإن هذا وحده كفيل بإقناع الناس.

(د) نظام الحكم في الإسلام..

لقد عرف المسلمون عدة أنظمة تعاقبت عليهم بعد موت رسول الله ﷺ وإلى يومنا هذا، بدأت بالخلافة الراشدة، ثم الخلافة الموروثة، ثم الملك العضوض، وعرف المسلمون عدداً من نظم الحكم في العصر الحديث، مثل الديمقراطية، ونظام الحزب الواحد، والحكم العسكري، والنظام الملكي، وغيرها والسبب في تعدد أنظمة الحكم هو أنّ الإسلام لم يلزم المسلمين بشكل معين لنظام الحكم، وإنما حدّد مبادئ وترك للمسلمين تطبيقها وفق ظروف زمانهم ومكانهم ومصلحتهم.

إن النظام الإسلامي يقوم سياسياً على الشورى، والحرية، والعدالة، والمساواة، والوفاء بالعهد ـ واقتصادياً على الإنتاج، والعدالة في توزيع الثروة، والتكافل، وتحريم الإستغلال، والربا، والكسب دون جهد ـ ويقوم اجتماعياً على الإخاء والتعاون والرحمة.

إن النظام الذي يقوم على النيابة في الحكم، والفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، ويسمح بتداول السلطة سلمياً، ويحقق الرقابة على المسئولين والحكام، ويسائلهم ويحاسبهم على تصرفاتهم؛ هو النظام الأمثل للحكم في هذا العصر، وبالمقارنة بين النظم السائدة حالياً نجد النظام الديمقراطي هو الذي يحقق تلك المقاصد، فالمسلمون عليهم أن يقبلوا بهذا النظام حتى يتمكنوا من بلورة النظام السياسي الإسلامي؛ لأنّ البدائل الحالية كلها أسوأ منه، فالنظام الديمقراطي إذا حدثت له أقلمة ليتلاءم مع بيئتنا ومعتقداتنا؛ ستتحقق في ظله فرائض الإسلام السياسية، ومبادئه في الحكم، وفي ظل الديمقراطية يقوم نظام الإسلام المنشود؛ لأنها لا تتعارض مع الإسلام في الجوانب المذكورة بل تحقق مقاصده.

(هـ) المرأة والتعامل معها..

كانت المرأة قبل الإسلام مهضومة الحقوق ومضطهدة من المجتمع؛ فمكانها في مؤخرة المنزل، وهي نفسها تورث من ضمن المال وليس لها حق ملكية أي شئ حتى نفسها، وكانت تدفن وهي طفلة حية مخافة العار في المستقبل، وكان الرجل إذا أنجبت زوجته بنتاً هجرها وابتعد عنها.. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨- ٥٩]

جاء الإسلام وأبطل كل تلك المفاهيم والعادات، وحقق للمرأة كرامتها وإنسانيتها وأنزل سورة تسمى سورة النساء، وساوى الإسلام بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات وأكد قائلاً: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ

أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وخاطب الإسلام المرأة بأحكام الشريعة كما خاطب الرجل قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥] والمرأة تدعو للإسلام كما يدعو الرجل، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتسعى في كل شئون حياتها: مثل التجارة، والصناعة، والزراعة، وجميع الأعمال التي تليق بها وبأنوثتها وتحفظ كرامتها.. إنها الشق الآخر للنوع الإنساني.. وهنالك نساء حفظ التاريخ أسماءهن مثل: مريم، وخديجة، وعائشة، وفاطمة، وبلقيس، ورابعة العدوية، ورابحة الكنانية؛ التي قطعت الفيافي والصحاري على قدميها لتخبر المهدي بتحركات جيش العدو.

إن الفهم الصحيح للاسلام يؤدى لاحترام المرأة، والإعتراف لها بحقوقها، ويمكنها من القيام بدورها الذي طلبه منا الشرع؛ فهي مكرمة أما وأختًا وبنتًا وزوجة؛ أعطاها الإسلام الحق في التعليم والحق في العمل والقيام بالأنشطة الإجتماعية والسياسية والإقتصادية(١).

(١) هذه الفقرة منقولة من كتاب يسألونك عن الأنصارية للمؤلف بتصرف صفحة (٢٧)

خاتمة

نحن نعيش في عالم متغير لا يشبه العالم القديم لا في نظمه ولا في علاقاته وابتكاراته: فالدولة ليست الدولة، والنظم ليست النظم، والمفاهيم ليست المفاهيم؛ هذا العالم بتعقيداته والتغيرات التي حدثت فيه، يحتاج إلى منهج جديد في التعامل؛ يخاطب المستجدات التي حدثت فيه، والإسلام بمبادئه الإنسانية، وبمفاهيمه العدالية؛ قادر على تحقيق هذا التطلع؛ مطلوب منا أن نطورخطابنا ليلبي هذه الضروريات.

إن أطروحات المدارس المنكفئة غير قادرة على مواجهة المتغيرات؛ لأنها تخاطب مفاهيم غير موجودة في عصر العولمة. وأطروحات الإستلاب تتجاهل القيم والثقافات التي تشكل هوية المجتمع، فتجد نفسها في تصادم مع الواقع مما يؤدى إلى هزيمة مشروعها كما شاهدنا في كثير من البلدان التي سلكت سبيل الغلاة، إن عالم اليوم ينشد التسامح والموضوعية والتعاون والحريات والحوار، فالخطاب الوسطي هو القادر على مخاطبة هذا العصر وذلك لما يتميز به منهجه من مرونة وإحاطة وتجديد؛ فهو مؤهل للتعامل مع كافة الأشكال والنظم والبيئا.

باستيعاب المعالم السابقة تتضح المعايير التي بموجبها يصح الحكم كل من يدعي الوسطية؛ هل هو صادق أم يخالف قوله الواقع. فالوسطية منهج يقوم على العدل والتوازن والتكامل؛ فمن يلتزم بهذا المنهج فهو وسطي فردا كان أم

جماعة أم تنظيما وإلا فلا..

والتوازن يتحقق بفهم صحيح الإسلام، وترسيخ مبادئه عن طريق المناهج التربوية والتعليمية، وكذلك بتجفيف منابع التَّطرف والغلو ومغذّياته الاجتماعية والفكرية، ومعالجة ظاهرة الفقر والأمية والتخلف، ويتم كل ذلك عبر تحقيق الإصلاح السياسي الذي له تأثير كبير على الأمور الأخرى.

إن الفهم الصحيح للإسلام؛ هو العاصم من الإنحراف عن الصراط المستقيم، وهنا يكون دور العلماء قال ﷺ: " يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عُدُولُه يَنْفُون عنه تَحْريف الغَالِين وانتِحَال المُبطلين وتأويل الجاهلين"(١)

إن الدين التزامٌ قبل الدعوة؛ وسلوكٌ قبل الشعار، وإصلاحُ الباطن قبل الظاهر، فالذي يدعو لأيّ أمر إن لم يكن مُلتزما به في نفسه؛ فلن يكون له أيُّ أثرٍ على الواقع، فمُعَلِّم نفْسَه ومؤدِّبُها خيرٌ من مُعَلِّم الناس ومؤدِّبهم، وثبت بالتجربة أن أكثر الأصوات ارتفاعا بالشعارات هي أقَلِّ التزاما بمضمونها قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣] أقول لرافعي الشعارات دون التزام؛ أرفقوا بأنفسكم وبالناس، فالشريعة ليست شعارات، ولا حدودا وعقوبات فحسب، وإنما هي منهج حياة متكامل، وبهذا الفهم أقول: إنّ الشريعة ليست غائبة كلياً، فالمجتمع المسلم يراعي أحكام الشريعة منذ الميلاد، ويحرص على ممارسة كل شؤون حياته وفق أحكامها، ويجتهد في ذلك حتى الممات. وأعني بذلك

(١) رواه البيهقي

النظام العام لمُجتمع المسلمين، وحتى الدول في بعض تشريعاتها مُلتزمة بالشريعة؛ ولا ينفي هذا وجود بعض المخالفات الفردية، والجماعية، وعلى مستوى الدولة، ولكنها مقارنة مع الغالب الأعم؛ فهي مخالفات قليلة، وتتعاظم حَسْب طبيعتها ونوع مقترفيها، وعليه فإن الشعار الصحيح هو "الدعوة لتوسيع قاعدة تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية لتشمل الجوانب التي لم تُطبق فيها"، ولكن بالتدرج مع مراعاة الواقع.

الإسلام دين خاتم جمع أصول الرسالات السابقة، ومن شروط صلاحيته للتطبيق استجابته لمتطلبات مستجدات الحياة، ومنذ عصر التَّنْزيل مرورا بكل الحقب اهتم الفقهاء بإبراز مقاصد التشريع؛ قال الشاطبي: "المقاصد أرواح الأعمال"(١) واجتهادات عمر بن الخطاب تؤكد ذلك؛ فمنعه سهم المؤلفة قلوبهم، ورفضه تقسيم أراضي العراق، واتخاذه للدواوين، وغيرها؛ كل ذلك يندرج في بند قراءة النصوص الجزئية في ضَوْءِ المقاصد الكلية، وفي عصر الإنفتاح والعولمة وتدفُّق المعلومات وتقارب الزمان والمكان؛ صار إبراز هذا المنهج من ضرورات العصر.

إن الفكر الإسلامي هو تَفاعُل بين النّصوص والواقع، والإسلام دعا لهذا التفاعل فالقرآن كتاب مقروء والكون كتاب منظور، ومطلوب من المسلم قراءة الكتابين ليفهم مقصد الله من قصة الخلق، ومهمة الإستخلاف، فتجديد الفكر الإسلامي؛ هو تفاعل بين الإسلام والواقع عبر العصور، ولكل عصر مُفَكِّروه

(١) الموافقات (٢/ ٣٣٤)

ومُجَدِّدُوه، والتجديد هو تجديد التَّدَيُّن لا تجديد الدين، وتجديد القراءة للنصوص وفق متطلبات العصر، لتحقيق التصالح بين الدين والحياة.

والشرع جاء لتنظيم حياة الإنسان وتوجيهها لما يحقق صلاحه في الدنيا والآخرة، والقرآن نزل لكل الناس عبر كل العصور، وكل أهل عصر مطالبون أن يقرأوا القرآن كأنَّه أُنْزل عليهم مع استفادتهم من قراءات السابقين لهم، والإلتزام بالأصول الثابتة التي لاتتغير بتغيُّر الزمان والمكان. واستصحاب الملائم لعصرهم من قراءة السلف.

فالقرآن الكريم لا تبلى جدته؛ أيْ أن معارفه ومعانيه لا تتقيد بحدود الزمان والمكان؛ إذا فُهم الإسلام بهذا المعنى الواسع، وأدرك المسلمون أن معارف القرآن أوسع من حدود المكان والزمان، وأنها متجددة؛ فإن ذلك من شأنه أن يحقق توفيقا بين ثوابت الإسلام ومقتضيات العصر المتجددة. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [ابراهيم: ٢٣-٢٤].

الوسطية منهج فكري، وموقف أخلاقي، ومظهر سلوكي، يتصف به المسلم استجابة لقوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧] حيث تشيرهذه الآية إلى أهمية الوسطية وتحقيق التوازن في الحياة. والعلماء هم من يناط بهم ترسيخ هذا المنهج؛ قال ﷺ: "يحمل هذا

العلم من كل خلف عدوله؛ ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"[١] الوسطية هي الاعتدال في كل أمور الحياة من تصورات، ومناهج، ومواقف، وهي تحرٍّ متواصل للصواب في التوجهات والاختيارات، فالوسطية ليست مجرد موقف بين التشدد والانحلال؛ بل هي منهج فكري وموقف أخلاقي وسلوكي[٢].

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]

(١) رواه البيهقي

(٢) راجع الوسطية معالم وضوابط للدكتور عصام أحمد البشير

المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم

٢- صحيح البخاري

٣- صحيح مسلم

٤- مسند الامام أحمد

٥- سنن الترمذي

٦- سنن البيهقي

٧- الموطأ للامام مالك

٨- موسوعة الحديث

٩- سنن ابن ماجة

١٠- موسوعة أصول الفكر السياسى والاجتماعى والاقتصادى من نبع السنة الشريفة وهدى الخلفاء الراشدين اعداد خديجة النبراوي

١١- البداية والنهاية لابن كثير

١٢- اعلام الموقعين لابن القيم

١٣- تاريخ الإسلام للذهبي

١٤- العقد الفريد لابن عبد ربه

١٥- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن القيم

١٦- المحلى لابن حزم

١٧- احياء علوم الدين للامام الغزالي

١٨- فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم

١٩- تاريخ الرسل والملوك للامام الطبري

٢٠- الاعمال الكاملة للكواكبي

٢١- الآثار الكاملة للامام المهدي للدكتور أبو سليم

٢٢- البيان لما يشغل الأذهان للدكتور علي جمعة

٢٣- نحو ثورة ثقافية: الامام الصادق المهدي

٢٤- الراتب للامام المهدي

٢٥- السنة النبوية مصدراً للمعرفة والحضارة: د. يوسف القرضاوي

٢٦- إدارة التنمية: الدكتور فضل الله علي فضل الله

٢٧- الإسلام في عصر العلم: محمد أحمد الغمراوي

٢٨- الحوار في الإسلام حقائق ونتائج: عبد المحمود أبو

٢٩- يسألونك عن الأنصارية: عبد المحمود أبو

٣٠- الإسلام والبيئة: عبد المحمود أبو

فهرس المحتويات

مقدمة الطبعة الثالثة ٥
مقدمة الطبعة الثانية ٦
إهداء ٧
مدخل ٨
الفصل الأول: المدارس العاملة في الساحة الإسلامية ١٣
مدرسة الانكفاء ١٤
أولاً: الجمود الفكري ١٥
ثانيـًا: الخلط الفقهي ١٦
ثالثـًا: محاولة مجاراة اليهود والنصارى ١٦
مدرسة الاستلاب: ١٨
مدرسة الوسطية ٢٠
الفصل الثاني: عوامل الخلل ومنهج العلاج ٢٥
العامل الأول: الاستبداد السياسى: ٢٦
العامل الثاني: الصراع العدمي بين نهجي الإنكفاء والاستلاب: ٣٢
منهج الوسطية والدين في حياة الإنسان ٣٤
أهمية الدين في حياة الإنسان: ٣٤
مكانة الإنسان في الإسلام: ٣٦

منهج الوسطية و التحديات ٤١
أولا: التعامل مع الوافد من الماضي:..... ٤١
ثانيا: التعامل مع الوافد من الخارج ٤١
ثالثا: اختلافات أهل القبلة ٤٢
رابعا: الموقف من الإصلاح السياسي..... ٤٢
خامسا: الإصلاح الاقتصادي ٤٣
سادسا: العلاقة مع الآخر الملي والآخر الدولي..... ٤٣
سابعا: الإرهاب ٤٣
ثامنا: العلمانية..... ٤٤
تاسعا: العولمة ٤٤
الفصل الثالث: نظرة موضوعية للإختلاف ٤٥
طبيعة الإختلاف داخل ملة الإسلام: ٤٧
العوامل الموضوعية للإختلاف: ٤٧
ثانيـًا: اختلاف القراءات: ٤٩
ثالثـًا: السنة النبوية: ٥٠
رابعـًا: مصادر التشريع: ٥٢
خامسـًا: مشروعية الإجتهاد: ٥٢
سادسـًا: إقرار الرسول للإختلاف النوعي والمحافظة عليه في إطاره: ٥٤
سابعـًا: المستجدات: ٥٥
الفصل الرابع: الرسالة الخاتمة هي المخرج..... ٦٣
خصائص الرسالة الخاتمة ٦٦

أولاً: العالمية..... ٦٦
ثانيـاً: الختام..... ٦٦
ثالثـاً: التيسير ٦٧
مقومات صلاحية الرسالة الخاتمة ٦٩
مطالب الفطرة:..... ٧٥
خاتمـة..... ١٠٥
المراجع والمصادر ١١٠
فهرس المحتويات..... ١١٣